www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الإعجاز العلمي في القرآن

تأصيل فكري وتاريخ ومنهج

سامي أحمد الوصلي

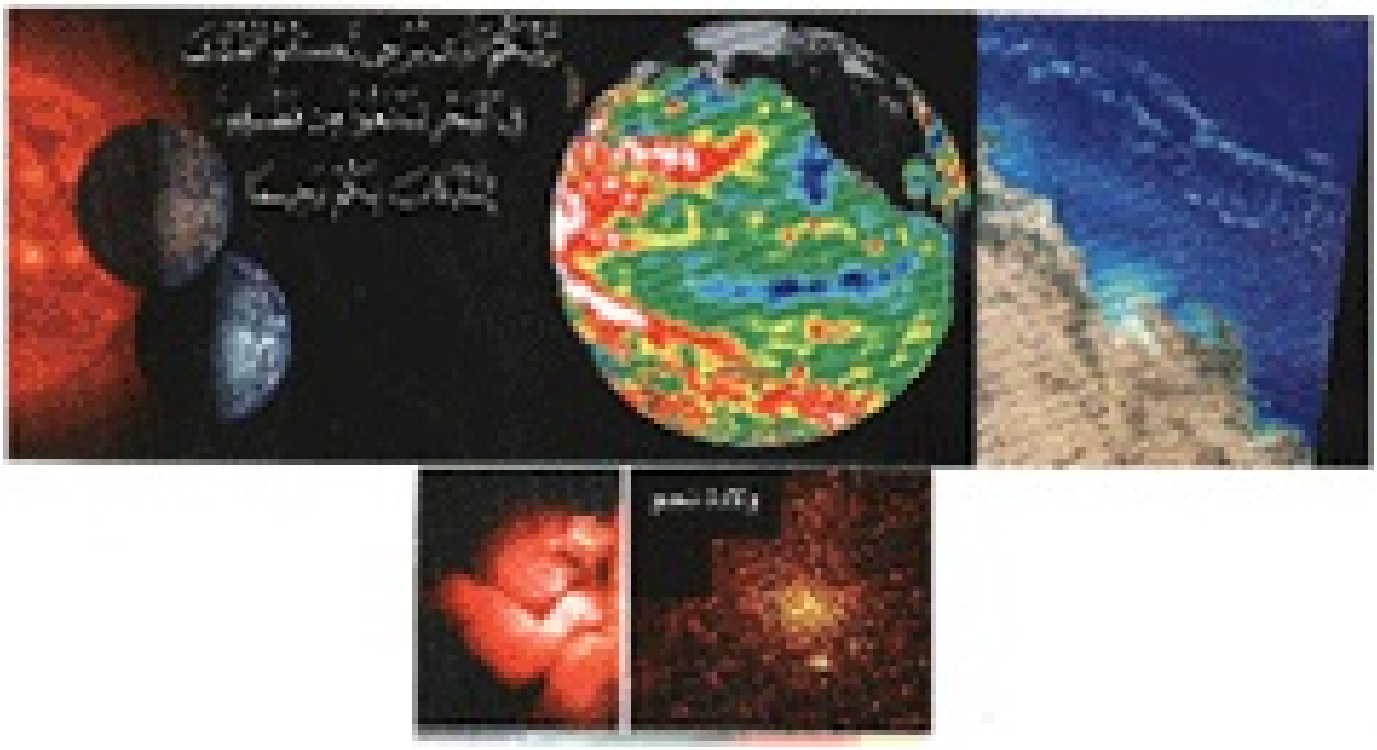

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)

كاتب:

سامى احمد الموصلى

نشرت فى الطباعة:

دارالنفائس

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی) ----- ۶
اشارة ----- ۶
المقدمة ----- ۶
المقدمة الفکریة ضرورة المعجزة بین مفهوم شمولیة الرسالة و خاتم النبیین ----- ۸
البعد التاریخی الإعجاز العلمی من کتب الإعجاز حتی التفسیر العصری ----- ۱۴
التطبیق العملی من نظریة المنهج إلی التطبیقات العملیة ----- ۲۵
اشارة ----- ۲۵
الزوجیة فی الإلکترون، أو الکون و الکون النقیض ----- ۲۹
الکون و الکون النقیض ----- ۳۱
الإعجاز العلمی فی الإسراء و المعراج ----- ۴۸
اشارة ----- ۴۸
۱- معجزة الإسراء و المعراج و تفسیرها لدی القدامی ----- ۵۱
۲- معجزة الإسراء و المعراج و التفسیر العلمی الحدیث ----- ۵۳
المصادر و المراجع ----- ۶۱
الفهرس ----- ۶۱
تعریف المرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۶۲

الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)

اشارة

نـام کتاب: الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی) نویسـنده: سامی احمـد الموصـلی موضوع: اعجاز علمی تاریـخ وفات مؤلف: معاصـر زبان: عربی تعداد جلد: ۱ ناشر: دارالنفائس مکان چاپ: بیروت سال چاپ: ۱۴۲۲ / ۲۰۰۱ نوبت چاپ: اوّل

المقدمة

المقدمـة حینما فکّرت بتألیف هـذا الکتاب کان فی ذهنی تساؤل کبیر یقول: لو أن محمـدا صـلّی اللّه علیه و سـلّم أرسل هذا الیوم فی هـذا العصـر، کیف کان سـیتحدّث للبشـریة المعاصـرة؟ و بأی أسـلوب و بأیّـة مضامین و بأیّة معجزة؟ و بصـیاغة أخری للتساؤل: لو أن القرآن الکریم أنزل هذا الیوم فی هذا العصـر، کیف سـیکون تحدّیه کمعجزة لهذا العصـر؟ و کیف سیتحدث للخلق کلهم بما یجعلهم یسلّمون له تسلیما بإعجازه المتناسب مع تطوّر البشریة علمیّا الیوم؟ إن هذا السؤال یبدو کبیرا فی أول وهلة، و لکن إذا ما تعمّقنا برسالة الإسلام، قرآنا و سنة، و کونها مرسلة إلی البشریة جمعاء حتی یوم القیامة، و بأن الإعجاز و المعجزة المطلوبة منها موجودة و متمثلة فی الفهم العلمی للقرآن، علی ضـوء جمیع المکتشـفات و النظریـات و القوانین العلمیـة المعاصـرة، بـل إن هـذه المعجزة العلمیـة مـا زالت مفتوحة علی المسـتقبل لکی تحتوی کل المستجدّات العلمیة علی مستوی جمیع العلوم، و فی کافة أنواع اختصاصاتها الکونیة و الذریة و البایولوجیـة ... الـخ. إذا ما تعمّقنا بهـذا الفهم للقرآن فسـنجد أن الجواب واضـح و یسـیر، بل و قد أشار إلیه القرآن نفسه حینما أکّد علی أنه سـیظهر صدقه و حقیقته فی المسـتقبل بقوله: سَـنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت/ ۵۳] أی إن القرآن حق بما سـیبرهن علیه الزمن، و هذا ما حصل، و یحصل الیوم و سیحصل غدا، حینما نجد أن القرآن قد أکّد الحقائق العلمیة التی سـتظهر بعـد نزوله بآلاف السـنین، بحیث إذا قرأ العالم المعاصـر، المتسـلّح بأحـدث نظریات العلوم و قوانینها و اکتشافاتها، القرآن یجده قد أشار إلیها إشارات واضـحة، و بعضـها فی التفصیل و البیان بحیث لا یمکن صرفها إلی غیر هذه المفاهیم الجدیدة المکتشفة. إذن، فـالقرآن و معجزته العلمیـة التی یتحـدّی بهـا العـالم المعاصـر تشـیر إلی أن القرآن کـأنّه یتنزّل الیوم مواکبا لطبیعـة العصـر، بل و متجاوزا لإمکانیاته الحالیة و المسـتقبلیة فی هذا الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۶ الجانب. فعظمة المعجزة القرآنیة هذه التی تحـدّثت لعرب الجاهلیـة فـأعجزتهم تقف الیوم للتحـدث للعقول الألکترونیـة، و لعلوم الفضاء و الفلک و الفیزیاء النوویـة و الکونیـة و للهندسة الوراثیة و الحیویة، بل و لکل العلوم و النظریات و القوانین بلغة تعجزهم بنفس قوة الإعجاز البلاغی للعرب الفصـحاء شـعراء و خطبـاء. إن عظمـة الرسالـة الإسـلامیة تکمن فی أن المعجزة التی جاء بها الرسول صـلّی اللّه علیه و سـلّم هی نفس کتابه الـذی تضـمّن شریعته و عقیـدته، و کتابه هو معجزته، و ما دام الرسول صـلّی اللّه علیه و سـلّم هو خاتم الأنبیاء و الرسل، و ما دام قد أرسل إلی الخلق کافة، من وجدوا فی عصره و من سیوجدون حتی القیامة، إذن یجب أن تکون له معجزة دائمة بدوام الرسالة لتدلّ کل عصر علی نبوّته و صـدق رسالته، فإذا کان المؤمنون السابقون قد آمنوا بالنّبی حینما رأوه و رأوا معجزاته، فکیف سـیؤمن به اللاحقون حتی یوم القیامة إذا لم تکن هناک معجزة حقیقیـة قائمـة تتحـدّی کل أحـد أن یأتی بمثلها؟ من هنا کان القرآن معجزة دائمة تتحدّی کل عصـر و کل زمن و کل جیل، و بما یتقنه و یتفنّن به ذلک العصر و ذلک الجیل، و الیوم، و عصرنا عصر علوم و ثقافة و اکتشافات خارقة، لم یصل إلیهـا جیـل سـابق بتاریـخ البشـریة کله، یقف الإعجـاز العلمی للقرآن متحـدّیا کـل ذلک بما أشار إلیه و تحـدث عنه من ظواهر علمیة سبقت عصـره الـذی أنزل فیه أوّلا- بکثیر، و من هنـا نری إسـلام کثیر من علمـاء الفلک و الفضاء و الفیزیاء و الکیمیاء و علوم الحیاة .. الخ، حینما یطّلعون علی آیات القرآن التی تخص علومهم، بل و تتجاوزها إلی مسـتقبل أرحب، حتی قام أحدهم بدراسة جمیع الکتب المقدسـة، علی ضوء آخر اکتشافـات العلوم و أحـدث القوانین العلمیـة، فسـقطت جمیعهـا، لتحریفهـا عبر الزمن، و بقی القرآن شـامخا

صادقا و دليلا- و حجة على هؤلاء العلماء و غيرهم ممن يبحثون فى أسرار الكون و الطبيعة و الإنسان. لقد قال اللّه تعالى فى كتابه العزيز: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ [الحجر/ ۹]، و نحن نجد اليوم صدق هذه الآية بلا نقاش أو جدال، فلم يزد فى القرآن أو ينقص منه حرف واحد بعد ألف و أربعمائة سنة على نزوله، و رغم أنه لم يجمع فى حياة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، بل جمع بعد وفاته، و مع ذلك فقد حفظه اللّه حفظا ليبقى حجّة و دليلا و هاديا على ساحة الزمن كله، أ لا يكفى أن تكون هذه الآية نفسها دليل صدقه و إعجازه؟ لقد قال هذا القول قبل ألف و أربعمائة سنة، و ها هو اليوم، كما هو منذ ذلك الزمن حتى الآن، رغم المحاولات العديدة لتحريفه و الزيادة و النقصان فيه. لقد قال تعالى فى قرآنه وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [النمل/ ۹۳]، و ها نحن اليوم الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۷ نرى آيات اللّه فى حقائق و أسرار الكون و الحياة مما لم يره من سبقنا، بل و لم يخطر ببالهم أن يصل العلم البشرى إلى هذا المستوى المتقدّم كثيرا جدا مقارنة بما كان عليه علم البشر سابقا! أ فلا يصدق القرآن اليوم كصدقه فى الأمس، فيكون معجزة هذا العصر كما كان معجزة العصر العربى الأول فى زمن الرسالة؟ أ لم تعرف فعلا آيات اللّه اليوم بما لم يعرفه السابقون؟ أ ليس هذا بدليل على أن القرآن كأنما يتنزّل اليوم على عصرنا بلغة علمنا، و يتحدث إلينا بالبيّنة و البرهان، كما كان يتحدث للسابقين؟ إذن فلو أرسل الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم اليوم فستكون معجزته هى القرآن نفسه كما نجده اليوم، و كما نفهمه مصداقا لقول القرآن نفسه من أننا سنرى آيات اللّه فنعرفها و نعرف صدقه بها إعجازا من اللّه و حجة على الخلق أجمعين. فما أعظمه من كتاب، و ما أعظمها من معجزة لم يكن مثلها لنبى أو رسول غير خاتم الأنبياء و المرسلين، و هكذا يحق لأحد الكتّاب و المؤلفين أن يقول: «إن الكتاب الذى يحق له أن يحكم العالم لا بد أن يتّصف بأنه ليس بحاجة إلى تعديل أو إضافة لأن أحكامه يقينية، بمعنى أن كلّ علاقة يعقدها بينه و بين الحياة لا بدّ أن تكون علاقة تخضع كل تجارب الناس، و كل علاقاتهم بالحياة للفوز المبين المعقود على نواصى كلماته». لكلّ ذلك فمهما بالغ المبالغون فى وصف القرآن فإنهم لن يبلغوا حقه فى وصفه، أ ليس هو كلام اللّه، و اللّه ليس كمثله شىء، فكيف يجب أن يكون و هو صفة من صفات اللّه فى كلامه؟ أ لم يصفه الرسول الكريم صلّى اللّه عليه و سلّم وصفا ما بعده مجال لمبالغ فى قول، و لا لمتحدّث فى خطاب حينما قال (كتاب اللّه تبارك و تعالى فيه نبأ ما قبلكم و خبر ما بعدكم و حكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه اللّه، و من ابتغى الهدى فى غيره أضلّه اللّه، هو حبل اللّه المتين و نوره المبين و الذكر الحكيم و هو الصراط المستقيم، و هو الذى لا تزيغ فيه الأهواء و لا تلتبس فيه الألسنة و لا تتشعب معه الآراء، و لا يشبع منه العلماء و لا يملّه الأتقياء، و لا يخلق على كثرة الرّد، و لا تنقضى عجائبه، و هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً [الجن/ ۱] من علم علمه سبق، و من قال به صدق، و من حكم به عدل، و من عمل به أجر، و من دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم). فمهما حاولنا، بقصور عقلنا البشرى، أن نصل إلى نهاية إعجازه فى كل باب من أبواب الإعجاز العديدة فسنبقى فى حدود قول اللّه تعالى وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء/ ۸۵]. فإذا كنّا عن فهم حقيقة العالم و الطبيعة و الكون و الحياة الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸ و الوجود عاجزين، و هم من مادة الحياة و الوجود نفسها التى نحن منها مخلوقون، فكيف سنستطيع أن نفهم صفة من صفات اللّه تعالى حق فهمها و هى كلامه و كتابه، و هما ليسا من مادة هذا الوجود و لا من طبيعة مادة الحياة و الكون الذين قتلناهم بحثا و تعمّقا، و استعملنا كل المختبرات و التلسكوبات و الميكروسكوبات، و صعدنا إلى أعماق الفضاء بأجهزتنا فضعنا فى مداه الواسع اللانهائى، و تعمقنا فى مفردات الذرة و جسيماتها الأولية حتى عجزت وسائلنا، على عظمتها، أن تقودنا إلى الحقيقة، فى حين أن القرآن، و بلغة و حروف البشر العادية نفسها، يصف لنا نهاية هذه النظريات الكونية و الذرّية، و يصف لنا الحقيقة واضحة بيّنة. إن خالق الكون هو الذى يتحدّث عن كونه، فهو الذى يعرف ما خلق و من خلق أ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك/ ۱۴] فإذا تحدّث فحديثه الصدق و الحق و العدل، و بذا يكون القرآن قد أجاب على كل الأسئلة التى طرحها العقل البشرى على نفسه منذ أعماق الحضارة الإنسانية و الفلسفة اليونانية حتى آخر التساؤلات التى يقف العلم المعاصر على عظمته مبهوتا بها. لقد تساءل الإنسان (بكيف) عن كثير من مفردات الطبيعة و ظواهرها، و أجاب القرآن عنها جوابا نهائيا لا لبس

فيه و لا ضياع، و التقى العلم المعاصر فى إجابته مع ما قاله القرآن منذ ألف و أربعمائة سنة لقاء مباشرا. كما تساءل الإنسان عن ماهيّة الأشياء و حقيقتها، و ما هو الوهم، و ما هو الصدق فيها، بعيدا عن هلوسات العقل و خرافاته، فأجاب القرآن عنها منذ ألف و أربعمائة سنة، و إذا بالعلم يلتقى مع آخر اكتشافاته، و بعد جهد كلّف الإنسان كثيرا من حياته و ماله و صحته مع ما قاله القرآن. و كذلك بحث الإنسان عن نفس الإنسان و أعماقها و مشاعرها، و ألّف كتبا و وضع علوما لكل ذلك، و مع أنه ما زال خاطئا و عاد خاسرا حيث تبخّرت حقائق النفس المفترضة لديه لم يجده البحث شيئا، و لو عاد للقرآن لوجد الجواب الشافى عن كل أسئلته و تساؤلاته التى جعلته يضيع حياته و عمره سدى فى هذا المجال، فى حين أن حكمة اللّه من خلقه كانت وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات/ ۵۶]، فلو عبده بما علّمه لأعطاه اللّه علم ما لم يعلم، فهو قد كلّفه بالعبادة و أعطاه علمها، فلو أدّى ما كلّف به لأعطاه اللّه حقيقة كل شىء من خلال هذه العبادة، و لعلم أن علم اللّه أكبر من خلق اللّه، و لا يحيط بعلمه شىء و هو يحيط بكل شىء، و هكذا نرجع إلى ما قاله اللّه تعالى واصفا علمه بكلامه و كلامه بعلمه وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ [لقمان/ ۲۷]. فليكفّ الإنسان عن أن يكون أكثر شىء جدلا، و يسلّم أمره إلى اللّه فسيجد ربه بانتظاره حيث الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۹ يعطيه علما من علمه حتى يبطل مفعول السؤال فى نفسه، فلا يسأل بعد أن علم، و لا يتجاهل بعد أن أسلم، و يرى حقيقة ما قاله أحد الباحثين فى القرآن: «فى العالم كله كتاب واحد قدّم للناس جميعا حقائق العلم قبل أن تثبت فى معارك العلاقات بين الوعى البشرى و بين مادة الكون، ذلكم هو القرآن»، و عند ذلك سيعجب كما عجب عقلاء العالم «إن عقلاء العالم ليعجبون كيف يكون فى عالم الناس القرآن و لا يجعلونه قبلتهم جميعا لفهم الحياة و تفسيرها و معرفة الحقيقة و العمل بها». إن هدف هذا الكتاب هو الجواب على هذه الأسئلة من خلال المحاولات التى تمّت فى مؤلفات العلماء لتحقيق هذا الجواب، فهل استطاعوا الجواب حقّا، ففهموا القرآن كمعجزة علمية معاصرة و كما يجب أن تكون حجة اللّه على خلقه فى هذا العصر؟ و كأنما الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم أرسل هذا اليوم به، و كأنما القرآن ينزل الآن بيننا و لا زال بكرا لم تتعمّق به العلوم كما يجب، رغم كل محاولات القدماء و مبالغاتهم العقلية و اللغوية التى وقفوا عندها، و قد جاء عصر المختبرات العلمية الفضائية و النووية لكى يقول كلمته فى هذا المجال، فهل وصل إلى الجواب الحق! و إلى الفهم الحق لكلام اللّه و قرآنه الذى بيّنه اللّه بيانا واضحا مفصّلا لكل شىء، و فيه علم كل شىء؟. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۱

المقدمة الفكرية ضرورة المعجزة بين مفهوم شمولية الرسالة و خاتم النبيين

المقدمة الفكرية ضرورة المعجزة بين مفهوم شمولية الرسالة و خاتم النبيين حينما نراجع بعض خصائص نبوّة سيدنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم الذى أظهره اللّه على الدين كلّه و أكّد اللّه سبحانه و تعالى فى قرآنه الحكيم أنه أكمل له الدين الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً [المائدة/ ۳]، نجد أن هناك تفرّدا و تميزا لهذه النبوة لم يكن مثلها لأحد من الأنبياء السابقين على كثرتهم، هذا التفرد و التميز يظهران من خلال خصوصيتين اثنتين أكدهما اللّه سبحانه و تعالى فى قرآنه المجيد، و تحدّث عنهما الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى عدة أحاديث. أما الخصوصية الأولى فهى فى كونه صلّى اللّه عليه و سلّم أرسل إلى الناس كافة وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [سبأ/ ۲۸]، و يقول الرسول الكريم فى حديثه «۱» (أعطيت خمسا لم يعطهن نبى قبلى، نصرت بالرعب مسيرة شهر، و جعلت لى الأرض مسجدا و طهورا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ، و أحلّت لى الغنائم و لم تحل لنبىّ قبلى، و بعثت إلى الناس كافة، و أعطيت الشفاعة)، و معنى هذه الخصوصية أن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، دون غيره من الأنبياء، أرسل إلى الخلق كلهم، سواء كانوا إنسا أو جنّا، و سواء كانوا عربا أم عجما، فى حين كان الرسول حين يرسل قبله يرسل إلى قومه فقط. و الخصوصية الثانية من خصائص نبوته هى كونه خاتم النبيين، فلا نبوّة و لا نبى، بعده، قال تعالى ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ [الأحزاب/ ۴۰]، و يقول الرسول الكريم فى

حديثه «۲» (مثلى و مثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأكملها و أحسنها إلا موضع لبنة، فكان كل من دخلها فنظر إليها قال ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، فأنا موضع هذه اللبنة، ختم بى الأنبياء)، و يقول فى حديث آخر «۳» (أنه سيكون من أمتى كذابون ثلاثون كلّهم يزعم (_____ ۱) الشفا بتعريف حقوق المصطفى- القاضى عياض، ج ۱، ص ۳۲۹. (۲) مختصر تفسير ابن كثير- محمّد على الصابونى، ج ۳، ص ۱۰۰. (۳) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور- السيوطى، ج ۳، ص ۱۰۰. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۲ أنه نبى، و أنا خاتم النبيين، لا نبى بعدى). إذن، فمن معانى شمولية الرسالة الإسلامية للخلق كلهم منذ بعث الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم حتى قيام الساعة أن تكون هذه الرسالة هى خاتمة الرسالات، و بالتالى يجب أن تكون كاملة لا تحتاج إلى نبى آخر يرسل ليستدرك على رسولنا الكريم ما فاته، كما هى حال جميع الرسل السابقين الذين كان النبى اللاحق يستدرك على النبى السابق فينسخ من شريعته ما ينسخ بأمر اللّه، كما أنّ من معانى خاتم النبيين أن يكون مرسلا و داعيا جميع الخلق، حتى بعد وفاته، إلى طريق اللّه، و أن يكون دليل صدق نبوّته قائم على الأجيال اللاحقة حتى قيام الساعة، و لا يكون هذا إلا بأن تكون له معجزة قائمة دائمة تبرهن على صدقه و صدق رسالته إلى هذه الأجيال، و تتحدى، كمعجزة، كل العصور و الأزمان حتى قيام الساعة. لقد دعا الرسول الكريم فى حياته جميع الخلق الذين عاصروه فى حياته إلى الإيمان باللّه، و آمن به من آمن من الإنس و الجن كما هو مذكور فى القرآن وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ [الأحقاف/ ۲۹]. فقد أدى الأمانة كما أمره اللّه بها، و توفى الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و ارتد من العرب من ارتدّ، ثم بعد حروب الردة رجع إلى الإسلام من رجع، و كانت معجزة الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم هى القرآن، و كانت تتحدّى العالم كله إنسا و جنا منذ نزولها و ستبقى حتى قيام الساعة، تقوم بعملية التحدى لأن يؤتى بمثلها، و هكذا فإن الرسول الكريم بصفته خاتم الأنبياء، جاء بمعجزة قائمة دائمة مستمرة فى تحدّيها، و لا تنتهى عجائبها حتى يرث اللّه الأرض و من عليها. إذن، فالقرآن العظيم هو المعجزة الدائمة للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو الذى عليه أن يتعامل مع مختلف الأجيال الإنسانية و مختلف الحضارات اللاحقة لعصر النبوّة و مختلف المستجدات التى تحصل للإنسان و الكائنات عموما، و مهما توصّل الإنسان فى أبحاثه و علومه و اكتشافاته فعلى القرآن أن يبقى معجزا فى كل هذه الأحوال و الأماكن و الموضوعات، فكيف يكون ذلك الإعجاز و القرآن كلمات معدودة لمعانى فسّرها المفسرون القدامى و أشبعوها بحثا؟ كيف يكون ذلك الإعجاز و قد ذهبت الفصاحة و البلاغة مع أهلها فى ذلك الزمان، و ذهب التحدى القائم عليها، و الذى كان أساس الإعجاز فى نزول القرآن أوّلا عليهم؟ كيف سيكون الإعجاز و هو دليل صدق نبوة النبى، و دليل كون القرآن من اللّه معا إذا كان العصر، مثل عصرنا، عصر معرفة و علوم و تكنولوجيا و اكتشافات فى الفضاء و الذرة و الحياة؟ أ ليست المعجزة و كل معجزات الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۳ الأنبياء السابقين كانت كذلك، عليها أن تتحدى كل عصر بما يتقنه ذلك العصر و يتفنن فيه و يحس بعظمته و كبريائه من خلاله؟ أ لم يتحدّ موسى عليه السلام سحرة فرعون بعصاه لأن العصر كان عصر سحر و سحرة؟ أ لم يتحدّ عيسى عليه السلام طب اليونان و أطباء عصره حينما جاءهم بشفاء و إحياء لم يكن و لن يكون مثله أبدا؟ و أخيرا، أ لم يتحدّ نبينا عليه الصلاة و السلام شعراء و خطباء قريش و العرب جميعا حينما جاء ببلاغة القرآن بنفس لغتهم، و نفس حروفها و كلماتها و لكن بإعجاز جعل أشعر الشعراء و أخطب الخطباء إذا سمعه بهت و أعلن عجزه و آمن بأنه من عند اللّه! لقد أدى القرآن العظيم وظيفته خير أداء فى تعجيز كل العرب الذين حضروه و عاصروه عن أن يأتوا بسورة من مثله، و هم أهل اللغة و الفصاحة و البلاغة التى لم يلحقهم بها أحدا! و على القرآن وظيفة أخرى الآن لكى لا- يتم الحديث عن أن المعجزة انتهت بانتهاء عصر من خاطبتهم بلغتها، و تحدّتهم آنذاك و أصبحت الآن خبرا يروى كباقى معجزات الأنبياء مع أقوامهم، هذه الوظيفة تأتيه من كونه جاء معجزا لكل من الإنس و الجن، و لكل زمان و مكان، لأنه لا نبى بعد خاتم الأنبياء، و لا معجزة و لا وحى و لا رسالة، و عليه هو، باعتباره معجزة خاتم الأنبياء الذى أرسل للخلق كافة، أن يقوم بهذه المهمة و أن يكون حجّة اللّه البالغة على العالمين فى كل عصر و حين و حتى قيام الساعة! لقد مضت أجيال و أجيال، و جاءت و

تجيء أجيال أخر تطالب بحجتها و برسولها و معجزتها وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ [فاطر/ ۲۴] و إلا فما ذنبهم أن يكونوا متأخرين عن عصر الرسل و ختمت النبوة قبلهم؟ أ يعذب اللّه الناس يوم القيامة قبل قيام الحجة عليهم؟ حاشا للّه. من كل ما تقدم، نجد أن القرآن هو المعجزة الخالدة التى تبقى عاملة عملها كما نزلت فى حياة الرسول الكريم صلّى اللّه عليه و سلّم، و بنفس القوّة المتحدّية لكل عصر، و يفخر بما يقول أحد الباحثين «۱»: «إذا قدر أن يبحث العلم الأديان عن طريق بحث ظاهرة النبوّة، فسيجد أن العقبة فى سبيله هى أن معجزاتها قد مرّت و انقضت، فهو لا يجد سبيلا إلى بحث شيء منها إلا معجزة واحدة لرسول واحد على دين واحد، إلا القرآن معجزة الإسلام على يد محمد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ... لقد ذهبت المعجزات كلها

(_____ ۱) الإيمان و العلم الحديث، ص

۱۴۰. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۴ و بقى، و تغيرت الكتب و حرّفت و لم يتغير هو و لم يتحرّف، فلو قدر للإنسانية أن تفحص الأديان بعقلية علمية لما وجدت غير الإسلام دينا يثبت للفحص العلمى، إذ ليس غير الإسلام دينا بقيت معجزته إلى اليوم و تبقى إلى ما شاء اللّه، لتكون موضوع بحث و امتحان له يهتدى البشر بفحصها إلى اللّه، و لعلموا عن طريقها أن الإسلام هو دين اللّه فاطر الفطرة و خالق الناس». إذن، فالقرآن هو معجزة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو بنفس الوقت كتاب رسالته ذاتها «لقد جعل كتابه عين معجزته، و معجزته عين كتابه ليكون حفظ الدين و حفظ معجزته أمرا واحدا سواء، و لتدوم حجة اللّه على الناس». على أنه يجب أن يتضح إعجاز القرآن لكل إنسان لتلزمه حجة اللّه إن هو أبى الإسلام، لذا فإن معجزة القرآن ليست من تلك الناحية التى يتوقف تقديرها و التسليم بها على معرفة لغة لا يتيسر معرفتها لكل أحد، و تلك الناحية الإعجازية هى الناحية العلمية فى القرآن ... أى أن الحقيقة العلمية التى لم تعرفها البشرية إلا فى القرن التاسع عشر أو العشرين مثلا، و التى ذكرها القرآن لا بد أن تقوم عند كل ذى عقل دليلا محسوسا على أن خالق الحقيقة هو منزّل القرآن ... إن موقف القرآن، كمعجزة اليوم لعصرنا، هو نفس موقفه كمعجزة فى عصر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا يتوقف كمعجزة إلا إذا استطاع العصر أن يتجاوزه فيما جاء به من صور الإعجاز العديدة، عند ذلك تتوقف حجة اللّه على العالمين، فإما أن يرسل رسولا- آخر، و هو قد قال إنه ليس هناك رسول بعد خاتم النبيين، أو يرسل معجزة تتحدّى من لا يؤمن بها، و هو ما لم يحصل. إذن، فالقرآن كان و ما زال و سيبقى حجة اللّه على العالمين، و لكن علينا نحن أن نعرف مواضع و مواقع إعجازه لعصرنا لكى تستمر الرسالة و كأنها جاءت اليوم. لننظر إلى منطق علماء الإسلام السابقين فى طريقه فهمهم لنبوة النبى و معجزة القرآن، و كيف كانت تعمل عندهم، و نقارنها بمنطق علماء اليوم فى نظرتهم و فهمهم لنبوّة النبى و معجزة القرآن؟ يقول الباقلانى فى إعجاز القرآن إن نبوّة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم معجزتها القرآن «۱»: «الذى يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوّة نبينا عليه الصلاة و السلام بنيت على هذه المعجزة»، و يصف هذه المعجزة بقوله «فأما دلالة القرآن فهى عن معجزة عامة عمّت الثقلين، و بقيت بقاء العصرين، و لزوم الحجة بها فى أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد». و لكن هل يمكن إدراك الإعجاز بسهولة حتى و إن

(_____ ۱) إعجاز القرآن- الباقلانى، ص ۳۱.

الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۵ كان إعجازا لغويا فقط كما كانوا يظهرون؟ يقول الباقلانى «۱»: «يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات إذا ظهرت على الأنبياء أن يدّعوا فيها أنها من دلالاتهم و آياتهم، لأنه لا يصح بعثة النبى من غير أن يؤتى دلالة و يؤيّد بآية، لأن النبى لا- يتميز من الكاذب بصورته و لا بقول نفسه و لا بشيء آخر سوى البرهان الذى يظهر عليه، فيستدل به على صدقه، فإذا ذكر لهم أن هذه آيتى و كانوا عاجزين عنها صحّ له به ما ادّعاه، و لو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهانا له، و ليس يكون معجزا إلا بأن يتحداهم إلى أن يأتوا بمثله، فإذا تحدّاهم و بان عجزهم صار ذلك معجزا، و إنما احتيج من باب القرآن إلى التحدى لأن من الناس من لا- يعرف كونه معجزا، فإنما يعرف إعجازه بطريق، لأن الكلام المعجز لا- يتميز من غيره بحروفه و صوته، و إنما يحتاج إلى علم و طريق يتوصل به إلى معرفة كونه معجزا، فإن كان لا يعرف بعضهم إعجازه فيجب أن يعرف حتى

يمكنه أن يستدل به». إذن، فالسابقون كانوا يحتاجون لمعرفة الإعجاز إلى دراسة و علم، رغم أن الإعجاز كان عندهم لغويا أكثر منه علميا و نظريات علمية، فكيف الحال عندنا فى الإعجاز العلمى؟ مما تقدم، نرى أن الأقدمين لم يكونوا يعرفون الإعجاز بداهة بعد أن مضى عصر النبوة و بدأت الأبحاث فى علوم القرآن تنتشر، و دخل كثير من غير العرب فى الإسلام، و هم لهم ثقافات و علوم ليست للعرب، كما أنّ الفصاحة و البلاغة دخلها ضعف كثير، من هنا كان يجب أن تقوم المؤلفات الكبيرة لمعرفة إعجاز القرآن، فالذى لا يعرف إعجاز القرآن لا يصدّق أنه من اللّه، و قد يعتبره كتابا من الكتب لأنه مؤلّف من حروف و كلمات و موضوع بين دفتى ورقة، أما من يعرف إعجازه فإن إيمانه يتكامل مع القرآن على أنه كلام اللّه و معجزة رسول اللّه، و أنّ فيه اليقين الحق الذى لا يقين غيره، و من هنا أيضا تعددت أوجه إعجاز القرآن حتى عند القدماء أنفسهم الذين كان التحدى الأول لهم بلغته و بلاغته و معانيه، و لكن من أعجب العجب فى هذا القرآن العظيم، الذى جاء من ربّ العالمين لهداية الناس أجمعين، أنه يدلّل على صدقه بنفسه فى كل عصر و حين، و يقول إنه سيفعل ذلك حتى يذعن له كل عقل سليم، و كل عالم و حكيم، بل و يزيد على ذلك بأن يعطى و عودا مستقبلية لما يحققه من إعجاز عبر كل زمن و عصر، بما يحمله ذلك العصر و الزمن من

(_____ ۱) إعجاز القرآن- الباقلانى، ص ۲۵۸. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۶ اختصاص و تقدم فى مجاله الذى يبدع فيه و يفخر، يقول ابن تيمية «۱»: «لما كان محمد صلّى اللّه عليه و سلّم رسولا إلى جميع الثقلين جنّهم و إنسهم، عربهم و عجمهم، و هو خاتم الأنبياء لا نبى بعده، كان من نعمة اللّه على عباده، و من تمام حجته على خلقه، أن تكون آيات نبوّته و براهين رسالته معلومة لكل الخلق الذين بعث إليهم، و قد يكون عند هؤلاء من الآيات و البراهين على نبوته ما ليس عند هؤلاء، و كان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية و الأفقية ما يبين به أن القرآن حق، كما قال تعالى قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (۵۲) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [فصلت/ ۵۲، ۵۳]. أخبر سبحانه أنه سيرى العباد الآيات فى أنفسهم و فى الآفاق حتى يتبين لهم أن القرآن حق، فإن الضمير عائد إليه، إذ هو الذى تقدم ذكره كما قال قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ [فصلت/ ۵۲]. و رغم أن التحدى الذى جاء به القرآن أن نزل إلى حدود أن طلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله، و قد تكون السورة ثلاث آيات فقط، مثل إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ [الكوثر/ ۱]، و رغم أنه كانت دواعى العرب و غيرهم على المعارضة تامة، رغم كل هذا فقد انتفت المعارضة، و علم عجز جميع الأمم عن معارضته، و هذا برهان آخر يعلم به صدق هذا الخبر الذى هو بنفس الوقت آية لنبوة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم». أما تعدد وجوه إعجازه عند الأقدمين فيظهر بأشكال مختلفة و متعدّدة و متنوعة، و كل شكل له وجه إعجازى قائم بنفسه، و لكى لا نطيل نشير إلى هذه إشارة عابرة و إلا فكتب الإعجاز كثيرة، من ذلك ما ذكره ابن تيمية من أن «۲» «كونه معجزا يعلم بأدلّة متعدّدة، و الإعجاز فيه من وجوه متعدّدة، فتنوّعت دلائل إعجازه، و تنوّعت وجوه إعجازه، و كل وجه من الوجوه، فهو دليل إعجازه و هذه جمل لبسطها تفصيل طويل، و لهذا قال تعالى: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۰) أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [العنكبوت/ ۵۰، ۵۱] فهو كاف فى الدّعوة و البيان و هو كاف فى الحجج و البرهان». إذن، فمجرد إنزال القرآن على الرسول هو معجزة، لأن ما فى القرآن من مضامين

(_____ ۱) تفسير ابن تيمية- ج ۲، ص ۱۳۹.

(۲) المصدر السابق، ج ۲، ص ۱۴۲. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۷ تكفى للرد على كل الحجج و الاعتراضات، كما أنها تكفى لتدلّ و توضح و تبرهن على حقيقة الدعوة و أنها من اللّه، و تعطى لكل عصر دليلا يناسبه، و تتحدث لكل قوم باللغة التى يفهمونها علما و فقها و حجة و بيانا. و إذا ما جئنا إلى البحوث المعاصرة و العلماء المحدثين نجد أن قوّة الدليل لديهم فى الإعجاز القرآنى، و بما يناسب العصر الحاضر، هى بنفس القوّة التى كانت لدى القدماء السابقين من العلماء، و رغم اختلاف طبيعة دليل كل

منهم، يقول شعراوى «۱»: «أما الإسلام فلأنه دين خاتم و شامل للبشرية كلها، فلا يمكن أن تكون معجزته حسّية تنتهى كسابقاتها، فخص اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بمعجزة تماثل قدر رسالته علو زمان و علو مكان، بحيث أن أى إنسان يؤمن على مرّ الزمن بمحمد يستطيع أن يقول أنا أؤمن بمحمد و هذه معجزته، و تابع عيسى لا يستطيع أن يقولها لأن التاريخ هو الذى حدثنا عن معجزة عيسى». و لما كان طابع العصر، الذى نعيش فيه اليوم، هو طابع البحوث و الاكتشافات العلمية المتعددة فى كافة جوانب الكون و الحياة، و لما كان كبرياء العالم و قوته اليوم يقوم أساسا على مقدار التقدم الذى توصلت إليه البشرية فى هذا الجانب، كان على القرآن، باعتباره معجزة لكل زمان و مكان، أن يظهر إعجازه فى هذا الجانب ليكشف للعالم تقدّمه و سبقه فى الإشارة و التوضيح إلى الحقائق العلمية التى توصّل إليها العلم اليوم، بعد أن كان هو قد ذكرها قبل أربعة عشر قرنا، و من هذا كان ما يسمى بالإعجاز العلمى للقرآن كلغة معاصرة يتحدث بها القرآن إلى الإنسانية جمعاء، ليدلل على صدقه و صدق نبوّة رسولنا الكريم من خلاله، و ليتحدث للإنسانية اليوم بلغتها ليقيم الحجّة عليها بنفس قوة الحجة التى أقامها على العرب أيام نزوله الأولى، يقول الدكتور محمد حسن هيتو «۲»: «فإننا حين نتكلّم عن إعجاز القرآن لا نريد بذلك إقناع العرب فحسب، و إنما نريد إقناع العالم بأسره، من عربى و غيره، فإن هذا القرآن أنزل للبشر جميعا و تحدّى به البشر جميعا فى كل زمان و مكان، و لذلك يجب علينا أن نخاطب البشر بما تستوعبه عقولهم، و أن الجوانب العلمية اليوم من أهمّ ما يستهوى عقول الناس فى الشرق و الغرب، فإذا ما رأوا ما يدل على الإعجاز فى كتاب اللّه فى جانب العلوم التى يتقنونها، هان عليهم الإيمان و التسليم. إذن فالذى دفع العلماء و المفكرين المسلمين للبحث و التحقيق فى جوانب الإعجاز العلمى فى القرآن هو الواقع الذى يعيش فيه

(_____ ۱) القرآن معجزة و منهج- محمّد متولى شعراوى، ج ۲، ص ۲۷۹. (۲) المعجزة القرآنية- د. محمّد حسن هيتو، ص ۱۴۸. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۸

الناس، و الذى صارت فيه العلوم أساس الحياة و الحضارة الإنسانية». إن همّ البشرية اليوم هو همّ علمى، فقد انكشف الغطاء للعقل الإنسانى فى هذا العصر ما لم يتكشف له منه فى أىّ عصر مضى من تاريخ الإنسانية، و إحساس الإنسان بموقعه المتميز فى الكون و الحياة جاءه اليوم من خلال الاكتشافات العلمية، و توظيف النظرية العلمية فى الصناعات و التكنولوجيا، التى استطاع من خلالها أن يصل إلى القمر فيمشى عليه متبخترا، كما استطاع أن يسبر أعماق الذرة و الكون و المجرات و السدم مستخدما لحسابه السنين الضوئية، كما استطاع أن يسبر أعماق الذرة ليصل إلى أخطر قانون علمى اكتشف حتى الآن و هو تحول الطاقة إلى مادة، و المادة إلى طاقة، و فى علوم الحياة بحث أسرار الخلية الحية حتى تعرّف على اللغة الكيميائية فى أعماق الخلية، و بدأ يدرس الهندسة الحيوية و الوراثية و يتحكم فى صفات الجنس البشرى. لقد أصبح العالم كمادة فى يد العالم المعاصر كالعجينة فى يد الخباز يدوّرها و يمطّها كما يشاء، هكذا العالم الذى تتلاعب به قوانين الكتلة و الطاقة و السرعة حتى حطمته و كشفت مجهولاته التى كانت فى السابق تحكمها الأساطير و الخرافات و المعقولات الساذجة و الفجّة، بل إن الإنسان أخذ يتحدّث عن تاريخ العالم و الكون بداية و نهاية، و يحسب دوران الفلك و الفضاء و انتهاءه إلى أمده أو عمره الكيمياوى و الفيزياوى، و قد غابت المستحيلات العقلية التى كانت تحجم الفكر عند حدود ضيقة، و هكذا طار الإنسان فى الفضاء يلاحق النجوم و الكواكب و المجرات، و يطلق الأقمار الصناعية و المركبات الفضائية إلى أعماق الكون علّه أن يجد حافّة الكون ليبحث وراءه عمّا يكون هناك، و تعمّق فى الذرة تحليلا حتى بلغ اللامنظور، و تبخّرت تسميات المادة التى تحوّلت إلى طاقة شعاعية فحسب، مما قضى على مفهوم المادة و الجسمية بالمعانى القديمة ليدخل بدلها مفهوم الضوء و الطاقة. إذن، حتى اللغة العلمية و مصطلحاتها اليوم أصبحت تختلف اختلافا كبيرا جدا، بل و متناقضا مع مفردات اللغة القديمة و مفاهيمها، فكيف استطاع القرآن، فى هذا العصر الذى كل ما فيه علم فى علم، أن يفرض إعجازه علميا على هذا العصر ذى اللغة المختلفة كليا؟ بل و كيف يمكن للقرآن أن يدخل مجال هذه العلوم ليتجاوزها و هو أصلا كتاب هداية و اعتبار و ليس كتاب علم و اختبار، كما أجمع عليه السلف و الخلف؟ يقول عبد اللّه خلاف عن ذلك فى كتابه «علم أصول الفقه» «۱»: «القرآن

(_____ ۱) علـم أصـول الفقـه- عبـد اللّه خلاف، ص ۲۹. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۹ أنزله اللّه على رسوله ليكون حجة له و دستورا للناس، ليس من مقاصده الأصلية أن يقرّر نظريات علميّة فى خلق السموات و الأرض و خلق الإنسان و حركات الكواكب و غيرها من الكائنات، و لكنه فى مقام الاستدلال على وجود اللّه و وحدانيته و تذكير الناس بآلائه و نعمه، و نحو هذا فى الأغراض، جاء بآيات نفهم منها سننا كونية و نواميس طبيعية كشف العلم الحديث، فى كل عصر، براهينها، و دل على أن الآيات التى لفتت إليها من عند اللّه، لأن الناس ما كان لهم بها من علم و ما وصلوا إلى حقائقها، و إنما كان استدلالهم بظواهرها، فلما كشف البحث العلمى سنّة كونية، و ظهر أنّ آية فى القرآن أشارت إلى هذه السنة قام برهان جديد على أن القرآن من عند اللّه، و إلى هذا الوجه من وجوه الإعجاز أرشد اللّه سبحانه بقوله فى سورة فصلت: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (۵۲) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [فصلت/ ۵۲، ۵۳]». و هنا إعجاز آخر لم يطرأ على البال. فإذا كان القرآن هو كتاب هداية و اعتبار قد أشار فى مضامينه عرضا إلى سنن الكون، فجاءت كل اكتشافات العالم المعاصر تؤيدها و تدعمها، فكيف لو اتجه حقا لأن يكون كتاب علم و اختبار؟ لا شك أنه سيكون أكبر من أن يسعه العقل البشرى، و لأعطى اليقين و الحقيقة فى كل شىء مباشرة دونما حاجة إلى توسطات التجارب و وسائل الاحتمالات و الإحصاءات، و سيكون هو مقياس الحقائق ذاتها لأنه أعرف بها منها بنفسها، لما ذا؟ لأن قائل القرآن هو خالق الأكوان مجال العلم و المعرفة. يقول شعراوى «۱»: «إن القرآن كلام اللّه، و الكون خلق اللّه، و حقائق الكون الموجودة فيه و التى خلقها اللّه لا بد أن تنسجم مع كلام اللّه فلا يكون هناك تضارب، فإن حصل ما ظاهره التضارب فإما إنك فهمت حقيقة قرآنية و هى ليست حقيقة قرآنية، و ليس هذا المراد من الحقيقة القرآنية، و إما أنك أتيت بشىء ليس حقيقة علمية و قلت هو حقيقة علمية، و لكن إذا تأكدنا أن هذه حقيقة قرآنية- و هذا هو الفرق- و هذه حقيقة علمية، فلا بد أن يلتقيا لأن قائل القرآن هو خالق الكون». بل إن بعض المفسرين و الباحثين يوحّدون فى المعنى بين الكون المنظور، و هو الوجود، و الكون المقروء، و هو القرآن، و يعتبرون أن الكون المنظور هو أدق تفسير للكون المقروء و ليس العكس، يقول د. محسن عبد الحميد، متحدثا عن

(_____ ۱) هذا هو الإسلام- محمّد متولى شعراوى، ص ۲۰۴. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۲۰ مدرسة الأفغانى و محمد عبده و رشيد رضا فى التفسير العلمى، أنه يجب «۱» «الانطلاق من المبدأ القائل كلما ازددنا معرفة بما فى الوجود من الأسرار و القوانين ازددنا علما بما فى كتاب اللّه، ذلك لأن الكون المنظور أعظم و أدق تفسير للكون المقروء، فلا بد إذن من الاستفادة من العلوم المتنوّعة، و الثقافات الإنسانية المتعددة الحديثة فى تفسير القرآن الكريم فى داخل الضوابط الأصولية المعروفة بين علماء الإسلام التى تضبط الاتجاه لحركة تفسير القرآن فى كل عصر». و لكن أ ليس فى البحث عن الحقائق العلمية فى القرآن، أو تفسير القرآن تفسيرا علميا معاصرا ما يقود إلى ربط العقيدة بمفاهيم العلوم و حقائقها، التى قد تتغير مع الزمن و مع الاكتشافات الجديدة، مما يجعل القول فى القرآن خاطئا علميا على التفسير القديم مما يضطرّنا لأن نغير التفسير مع كل حقيقة جديدة للعلوم؟ و بذلك نكون كمن قال فى القرآن برأيه، و هو أخطر التفاسير و أسوؤها؟ لا شك أن هذه المقولة حقيقية عبّر بها بعض الكتاب و المؤلفين، كالعقاد و بنت الشاطئ و أمين الخولى، عن ملاحظاتهم على محاولات التفسير القسرية التى تمت فى بعض الأقطار العربية، و بعد أن يؤكد العقاد فى كتابه عن الفلسفة القرآنية من أن العلوم الإنسانية «۲» «تتجدد مع الزمن على سنّة التقدّم فلا تزال بين نقص يتم و غامض يتّضح و موزّع يتجمّع، و خطأ يقترب من الصواب، و تخمين يترقّى إلى يقين، و لا يندر فى القواعد العليمة أن تتقوّض بعد رسوخ أو تتزعزع بعد ثبوت، و يستأنف الباحثون تجاربهم فيها بعد أن حسبوها من الحقائق المفروغ منها عدّة قرون، فلا يطلب من العقيدة أن تطابق مسائل العلم كلما ظهرت مسألة منها لجيل من أجيال البشر، و لا يطلب من معتقديها أن يستخرجوا من كتبهم تفصيلات تلك العلوم ... الخ»، لذا يستنتج العقاد من ذلك «۳» «كلا لا

حاجة بالقرآن لمثل هذا الادعاء لأنه كتاب عقيدة يخاطب الضمير، و خير ما يطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم أن يحث على التفكير، و لا يتضمن حكما من الأحكام يشل حركة العقل فى تفكيره أو يحول بينه و بين الاستزادة من العلوم ما استطاع و حيثما استطاع». و لكن ألا يقود هذا إلى تعجيز القرآن أمام العلم، أو على الأقل إثبات اختلافه معه و هو من أخطر قضايا الاختلاف بين الدين و العلم، يعود العقاد قائلا «۴»: «فالقرآن

(۱) تطور تفسير القرآن- د. محسن عبد الحميد، ص ۲۲۱. (۲) الفلسفة القرآنية- عباس محمود العقاد، ص ۱۸. (۳) المصدر السابق، ص ۱۹. (۴) المصدر السابق، ص ۲۰.

الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۲۱

الكريم يطابق العلوم، أو يوافق العلوم الطبيعية بهذا المعنى الذى تستقيم به العقيدة و لا تتعرّض للنقائض و الأظانين كلما تبدلت القواعد العلميّة، أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم أو يقين يبطل التخمين، و فضيلة الإسلام الكبرى أنه يفتح للمسلمين أبواب المعرفة و يحثهم على ولوجها و التقدم فيها، و قبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن، و تجدد أدوات الكشف و وسائل التعليم، و ليست فضيلته الكبرى أن يقعدهم عن الطلب و ينهاهم عن التوسع فى البحث و النظر لأنهم يعتقدون أنهم حاصلون على جميع العلوم». لا شك أن تخوّف العقاد، و من معه، من التفسير العلمى كان بسبب التفسيرات العلمية التى ظهرت فى زمنهم، و التى كانت فعلا منحرفة جدا و غير مستندة على أساس علمى منهجى، حتى أن الشيخ طنطاوى جوهرى كان يؤمن بأن القرآن لا يفسّر إلا بالعلم الحديث، فكتب تفسيره و مزج فيه الآيات القرآنية بالعجائب الكونية، و يؤكد أن القرآن سر العلوم. لقد لخص الدكتور عفت محمد الشرقاوى، فى كتابه «الفكر الدينى فى مواجهة العصر»، حجج الذين يعارضون التفسير العلمى بالنقاط التالية «۱»: ۱) إن الفهم الدقيق للألفاظ يحتم علينا فهمها فى حدود الاستعمال الذى نزلت فيه، و هذا يحول بيننا و بين التوسع فى جعلها تدل على معان لم تعرف بها وقت نزول القرآن. ۲) يجب أن نقف بعبارات القرآن عند ما فهمه العرب الخلّص، و لا نتجاوز ما ألفوه فى علومهم و أدركوه من معارفهم، لأننا نعتقد أن البلاغة هى مراعاة مقتضى الحال. ۳) إن مهمة القرآن دينية اعتقادية و ليست علمية. ۴) ينبغى أن لا نقحم النظريات العلمية على القرآن الكريم، أو نعتبر أن القرآن الكريم مطالب بموافقتها كلما تغيرت من زمن إلى زمن، و من تفكير إلى تفكير. ۵) إن إدخال التفسيرات العلميّة على الإشارات القرآنية، و بالصورة التى جرى عليها بعض الكتاب و العلماء، لا بد أن يفضى، عما قريب أو بعيد، إلى الصراع بين الدين و العلم. ۶) التفسير العلمى يحمل أصحابه على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافى مع الإعجاز و لا يسيغه الذوق السليم.

(۱) الفكر الدينى فى مواجهة العصر- د. عفت محمّد شرقاوى، ص ۴۲۵. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۲۲

۷) التفسير العلمى بدعة حمقاء و دفاع فاسد عن إعجاز القرآن من كل وجه. لا شك أن هذه الملاحظات و الحجج قد أثّرت على مسيرة التفسير العلمى للقرآن، فبعد أن ذهب الانبهار الأول فى العلوم عبثا، كانت تؤخذ بلا مناقشة و لا دراسة بحيث أن تكون نظرية علمية افتراضية، و أن تكون قاعدة أو قانونا علميا حقيقيا، أصبح اليوم للتفسير العلمى، بل و الإعجاز العلمى، مدرسة متشعبة متعمّقة منهجية وضعت لنفسها الضوابط و الشروط لهذا التفسير قبل ممارسته، بل و إنها رجعت إلى بعض الآراء الواردة عن القدامى من علماء و فقهاء لكى تبنى رأيها على أرضية ثابتة من القناعة، و لكى تبقى للقرآن دوره الإعجازى المستمر حتى فى هذا العصر، فما دام هو صالحا لكل زمان و مكان فيجب إذا أن يقول كلمته فى كل جديد من العلوم و المعارف الحقيقية، لكى يستدل من ذلك على أنّه كلام اللّه، و أنه معجزة رسول اللّه، و إلى جميع العالمين فى كل وقت و حين. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۲۳

البعد التاريخى الإعجاز العلمى من كتب الإعجاز حتى التفسير العصرى

البعد التاريخى الإعجاز العلمى من كتب الإعجاز حتى التفسير العصرى لو حاولنا أن نرجع فى التاريخ إلى الوراء إلى زمن النبوّة و ما

بعدها، للتعرف على كيفية تصور القرآن عندهم لوجدنا ما يعيننا على التأصيل الفكرى للإعجاز العلمى للقرآن، و أنه كانت هناك بدايات لتفسير القرآن علميّا و ضمن مفردات كل عصر، و ما وصل إليه من تطور هذه العلوم آنذاك، ففى الحديث النبوى عن على بن أبى طالب، كرم اللّه وجهه، ورد هذا الحديث «۱» قال: (أما إنى قد سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: ألا إنها ستكون فتنة، فقلت: ما المخرج منها يا رسول اللّه؟ قال: كتاب اللّه، فيه نبأ ما قبلكم و خبر ما بعدكم و حكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه اللّه، و من ابتغى الهدى فى غيره أضلّه اللّه، و هو حبل اللّه المتين، و هو الذكر الحكيم، و هو الصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، و لا تلتبس به الألسنة، و لا يشبع منه العلماء، و لا يخلق على كثرة الرّدّ، و لا تنقضى عجائبه، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ [الجن/ ۱، ۲] من قال به صدق، و من عمل به أجر، و من حكم به عدل، و من دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ...) ... لعل هذا أقدم أثر لحديث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن القرآن، فهو لا يشبع منه العلماء و لا تنقضى عجائبه ... و يروى أيضا عن على بن أبى طالب فى وصفه للقرآن أنه قال «۲»: «القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق، لا تفنى عجائبه و لا تنقضى غرائبه و لا تكشف الظلمات إلا به، و هو آمر زاجر و صامت ناطق و حجّة اللّه على خلقه، أنزله اللّه نورا لا- تطفأ مصابيحه، و سراجا لا- يخبو توقّده، و بحرا لا- يدرك قعره، جعله اللّه ريّا للعلماء و ربيعا لقلوب الفقهاء و محاجّ لطرق الصلحاء و دواء ليس بعده داء، و هو كتاب اللّه بين أظهركم، ناطق لا- يعيا لسانه، و بيت لا- تهدم أركانه و عزّ لا- تهدم أعوانه».

(_____ ۱) التاج الجامع للأصول- منصور على ناصف، ج ۴ ص ۷. (۲) تفسير مفردات القرآن- سميح عاطف الزين، ص ۷. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۲۴ و لقد كان هذا التصوّر سائدا عند الصحابة و التابعين، لذا فإن الإمام الغزالى ينقل فى إحياء علوم الدين عن بعض العلماء «۱» «أن القرآن يحوى سبعة و سبعين ألف علم، و مائتى علم، إذ كل كلمة علم»، ثم يروى عن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنه قال: «من أراد علم الأولين و الآخرين فليتدبّر القرآن»، ثم يقول بعد ذلك: «و بالجملة، فالعلوم كلها داخلة فى أفعال اللّه عزّ و جل و صفاته، و فى القرآن شرح ذاته و أفعاله و صفاته، و هذه العلوم لا نهاية لها، و فى القرآن إشارة إلى مجامعها. ثم يزيد فى ذلك فيقول: بل كل ما أشكل فهمه على النظّار و اختلفت فيه الخلائق فى النظريات و المعقولات فى القرآن إليه رمز و دلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها، فتفكر فى القرآن و التمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين و الآخرين». أما السيوطى «۲» فيعتبر احتواءه على علوم و معارف لم يجمعها كتاب من الكتب، و لا- أحاط بعلمها أحد فى كلمات قليلة، و أحرف معدودة، أول وجه من وجوه إعجاز القرآن، و يروى أحاديث و آثار كثيرة فى هذا الصدد، منها ما رواه البيهقى عن الحسن قال: أنزل اللّه مائة كتاب و أربعة كتب أودع علومها أربعة منها التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة فى الفرقان. و يروى عن ابن مجاهد أنه قال: ما شىء فى العالم إلا و هو فى كتاب اللّه عز و جل. و يروى عن ابن أبى الفضل المرسى قوله: جمع القرآن علوم الأولين و الآخرين بحيث لم يحط بها علما إلا واهبها و المتكلم بها، ثم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خلا- ما استأثر به سبحانه، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة و أعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة و ابن مسعود و ابن عباس، حتى قال لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب اللّه. ثم يستعرض السيوطى جميع العلوم النابعة من القرآن، فيجمع كل العلوم الموجودة فى عصره و يصل إلى القول «۳»: «و قد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل، مثل الطب و الجدل و الهيئة و الهندسة و الجبر و المقابلة و النجامة و غير ذلك»، و ينقل عن الراغب قوله «إن اللّه تعالى كما جعل نبوءة النبيين بنبينا و مولانا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم مختتمة، و شرائعهم بشرعته من وجه منتسخة و من وجه متمّمة مكملة جعل كتابه المنزل عليه متضمنا لثمرة كتبه التى أولها «۴» أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [البقرة/ ۵] و قوله

(_____ ۱) أصول التفسير و قواعده- خالد عبد الرحمن العك، ص ۲۲۰. (۲) معترك الأقران فى إعجاز القرآن- السيوطى- ج ۱ ص ۱۲. (۳) المصدر السابق، ص ۱۷. (۴) المصدر السابق، ص ۱۹. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۲۵ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً* فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ [البينة/ ۲، ۳]، و جعل من

معجزة هـذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضـمن للمعنى الجم بحيث تقصـر الألباب البشـرية عن إحصائه و الآلات الدنيوية عن استيفائه، كما نبّه عليه بقوله وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ [لقمان/ ۲۷]». و أخيرا يروى السـيوطى قول القاضـى أبى بكر بن العربى فى قانون التأويل: علوم القرآن خمسون علما، و أربعمائة علم، و سـبعة آلاف علم، و سبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبة فى أربعة، إذ لكل كلمة ظهر و بطن و حد و مطلع، و هذا مطلق دون اعتبار تركيب و ما بينهما من روابط، و هذا مما لا يحصـى و لا يعلمه إلا اللّه. و يروى السـيوطى حديثا عن أبى هريرة أنه قال: فال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: (إن اللّه لـو أغفـل شـيئا لأغفـل الـذرة و الخردلـة و البعوضـة). و ممن تـابع مفردات التفسـير العلمى الـدكتور محسن عبد الحميـد، حيث يرجع بداياته إلى الإمام الغزالى «۱» فى كتاب جواهر القرآن، الـذى دعا فيه إلى أن هـذه العلوم المعروفة ليست أوائلها (أصولها) بخارجـة عن القرآن، لأن جميعها مغترفـة من بحار معرفة اللّه تعالى. فالعلماء بهذه العلوم هم الذين يعرفون الأسـرار و السـنن الكامنـة وراء الآيات الكونيـة فى القرآن الكريم، و التى تمثل بحار أفعال اللّه تعالى فى الوجود. و يرى الدكتور عبد الحميد أن الغزالى لا يعتقـد بوجود هذه العلوم جميعها بتفاصـيلها فى القرآن، و إنما كان يعتقد أن موازينها و مفاتيحها هى الموجودة فيه، و لعل أكثر من تعامـل بمفردات العلـوم من تفاسـير القرآن هو الفخر الرازى فى تفسـيره الكـبير الـذى آمن بمقولـة الغزالى و أكـثر من اسـتخدامها فى تفسـيره. إلا أن الدكتور عبد الحميد، فى دراسـته عن تفسير الرازى، يقول عنه «۲» «إنه لم يـذكر أن فى القرآن كـل العلوم و المعارف الإنسانيـة بالفعـل، بل إنه مشـى على أساس أن القرآن يجلب نظرنا إلى القوانين المتنوعـة المنشورة فى الكون، و لن نسـتطيع أن نفهمه حق الفهم إن لم نطّلع على العلوم و المعارف، إذ أن فى ضوئها نفهم كثيرا من أسـرار القرآن» ... إذن فالقـدامى من العلماء و الباحثين، و من الصـحابة و التابعين كانوا يعتقدون أن كل العلوم فى القرآن، سواء عرفوا هذه العلوم التى كانت فى عصرهم أو لم يعرفوها، و أن فيه علم الأـولين و الآـخرين، و لمعرفتنـا بحـدود علومهم فى ذلـك الزمـان و اختلاط بعضـها ببعض فإننا لا نسـتغرب منهم ذلك، فأين كتـاب اللّه من كتب (_____ ۱) تطور تفسير القرآن- د. محسن عبـد الحميد، ص ۲۲۵. (۲) المصـدر السابق نفسه. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۲۶ البشر؟ و أين علم اللّه من علم البشـر؟ فالأساس الـذى اعتمـدوه فى أحاديثهم عن القرآن، و ما اسـتخرجوه و اسـتنبطوه منه يعود إلى هذا اليقين و الإيمان بصـدقه قبل البرهنة عليه، و ذلك لأنه من اللّه و من علم اللّه و من كلام اللّه، فخالق الكون و الخلق أدرى بما خلق أ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك/ ۱۴] و لعـل خير ما يستشـهدون به على جميع ما يـذكروه من علوم القرآن أنه هو نفسه قال: وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَـجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُـدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَـبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ [لقمان/ ۲۷]. فمن يؤمن بالقرآن يؤمن بهـذه الآيـة، و من يؤمن بهـذه الآيـة فليبالغ ما شاء، فلن يصل إلى حـدود علم اللّه، لأن علم اللّه مطلق و جميع المبالغات المفهومة و غير المفهومة هى نسبية لعقل الإنسان المحدود، و لا شك أن المعترضـين و المحتجين على تفسـير القرآن علميا هم ناس مؤمنون أيضا و لا يختلفون عن أن علم اللّه هو فوق البشـر، و أن كلام اللّه المعبر عن علمه فى القرآن هو أبعـد من أن يحيـط به عقـل، إلاـ أن الاختلاـف بينهم و بين المؤيـدين للتفسـير العلمى يكمن حول المناسـبة و الالتقاء الحقيقى بين كل آية و كل علم، فهل هذه الآية قصد منها كذا، و تدل على كـذا حقيقـة علميـة، أم أنهـا لاـ تـدل على ذلـك! و هل القرآن فيه ما يشـير إلى أبواب و مبادئ العلوم فى كـذا آيـة، أم أن هـذه الآية تفسيرها أسباب النزول و المعانى المحددة و المشخصة فيها، كما فسّرها الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم أو بعض الصحابة و التابعين؟ هنا مكمن الخلاف، و هذه مسألة قادت إلى سؤال كبير طرحه العقاد على نفسه فيقول «۱» «هل معنى ذلك أن الكتب المقدسة لا تفهم إلا كما فهمها المخاطبون بها لأول مرة؟ أو معناه أنها تفهم فى كل عصـر حسب النظريات العلمية التى انتهى إليها أبناؤه؟ و رغم أن العقاد من المعارضـين للتفسير العلمى للقرآن إلا أنه حينما يجابه هذا السؤال يقول بأنه لا محل للخلاف فى أن الإنسان العصرى مطالب بفهم كتبه المقدسـة، و فهم ما توجبه على ضـميره من الفرائض و الشـعائر و الواجبات، و الفهم المطلوب من المكلف المخاطب يقتضـى أن المسـلم مأمور فى القرآن بالتفكير و التأمل و التـدبّر و الاسـتقلال بـذلك عن الآباء و الأجـداد، و أخبار الزمن القـديم و أئمة الدين، و

ليس الخطاب مقصورا على العرب الأميين، و لا- هو مقصور على أبناء القرن العشرين، و لكنه عام مطلق لكل عصر و كل زمان، إذ ليس من المعقول أن يفكر الإنسان على نسق واحد فى جميع العصور. و مع هذا فالعقاد يؤكد أن التفكير

(_____ ۱) الفكر الدينى فى مواجهة العصر-

د. عفت محمّد شرقاوى، ص ۴۲۷. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۲۷ العصرى شىء و إقرار النظريات العلمية المتجددة شىء آخر». و نفس السؤال يطرحه الأستاذ محمد الصادق عرجون فى كتابه «نحو منهج لتفسير القرآن»، مع العلم أنه يعارض معارضة شديدة لما وقع من تفسيرات علمية للقرآن، يقول «۱»: «إذا كان أسلافنا من أعلام العلماء و حكماء الإسلام قد خاضوا بحار العلوم و لجج المعارف، و اقتحموا حصون الأفكار فى أزمانهم، و لم يتركوا منها مشرعا إلا و ردوه، و اتخذوا من كافة معارفهم و أفكارهم معينا لفهم كتاب اللّه فهما يقوم على حقائق العلم الصحيح لتبين هدايته و إقامة محبته، فما موقفنا نحن من عصرنا و معارفه و وسائله و أفكاره و مذاهبه؟ هل نقف من آيات اللّه عند مبلغ ما وصل إليه أسلافنا فى أعصرهم، و هو نهاية احترام العقول فى بيئاتهم و أزمانهم و مجتمعهم؟ أو نتقدم فى شجاعة كما تقدموا إلى البحث بوسائل عصرنا، و نغوص فى بحار معارفه بعقولنا التى ربّاها القرآن الحكيم و حديثه و براعة أسلوبه و لطف مدخله و دقة تصويره، و رائع تناوله لقضايا الحياة و الكون مع عنايته بتثبيت قواعد الإيمان فى قلوب دارسيه من المؤمنين». و رغم معارضته للتفسيرات العلمية التى وقعت للقرآن، نراه يجيب بضرورة ذلك و لكن بشروط هى أن لا نخضع القرآن لنظريات علمية لا- تزال فى مهبّ التجارب، و قد تعصف بها فتصبح من قبل الأساطير، كما فعل بعض المتحمسين و بعض المخدوعين ببريق العلم التجريبى، و أن نحذر أشد الحذر من الشطحات القرمطية التى تقصد إلى تحريف آيات اللّه عن مواضعها، و يخلص إلى القول «۲» «و النظر فى تفسير الآيات الكونية يجب أن يقصد أولا إلى تبيين هداية القرآن تبيينا علميا، لا على أساس أن نجعل النظريات العلمية التجريبية هى تفسير الآيات القرآنية و معانيها التى قصدها القرآن الكريم، و لكن على أساس أن القرآن الكريم لا يصادم علما ثبت بالبرهان القطعى ثبوتا لا يحتمل الارتياب و الشكوك، و الراسخون فى العلم من المؤمنين تزيدهم النظريات العلمية فى حقائق الكون و خواطر الطبيعة إيمانا بجلال اللّه و عظمة الخلاق العليم» ... إن جميع المعارضين لتفسير القرآن علميا، تنصب ملاحظاتهم على ممارسات بعض المفسرين و انحرافاتهم فيها، و لم أجد من يعترض مبدئيا أو فكريا أو يعطى قانونا عاما يبرّر به سبب رفضه للاستفادة من العلوم و المعارف الحديثة فى تفسير القرآن. فالدكتورة عائشة عبد الرحمن، حينما تتحدث عن سلبيات التفسير العلمى (_____ ۱) نحو منهج

لتفسير القرآن- محمّد الصادق عرجون، ص ۶۱. (۲) المصدر السابق، ص ۶۳. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۲۸ تضع أمامها تفسيرات مصطفى محمود المبتسرة و التى لا تصمد كثيرا أمام النقد، حتى كتب أكثر من واحد كتابا كاملا فى الرد عليه، منهم الدكتور عبد المتعال الجبرى فى كتاب «شطحات مصطفى محمود فى تفسيراته العصرية للقرآن الكريم»، أما كتاب الدكتورة عائشة «القرآن و التفسير العصرى» فهى تؤكد فيه أننا نتورط، من هذا المنهج فى التفسير، إلى المزلق الخطر يتسلل إلى عقول أبناء هذا الزمان و ضمائرهم، فيرسخ فيها أن القرآن إذا لم يقدم لهم علوم الطب و التشريح و الرياضيات و الفلك و أسرار البيولوجيا و الإلكترون و الذرة ليس صالحا لزماننا، و لا جديرا بأن تسيغه عقليتنا العلمية و يقبله منطقنا العصرى. و هكذا تصل إلى القول بأن مثل هؤلاء الذين يلحون على التفسير العصرى للقرآن يغرون أبناءنا بأن يرفضوا القرآن كما فهمه الصحابة فى عصر البعث و مدرسة النبوة، ليفهموه فى تفسير عصر من بدع هذا الزمان. أما الدكتور عبد المتعال فإنه يفترض على المفسر، قبل أن يدخل فى مجال التفسير، ضوابط عدة منها دراسة العلوم الكونية و الاجتماعية، لأنها كما يقول تزيدنا يقينا بنسب القرآن إلى عالم الغيب و الشهادة الحكيم العليم، و يعتقد أن حقائق العلوم المنوعة التى سبق القرآن بتبيانها و لم تكن موجودة عند نزول القرآن، تزيدنا يقينا بأن القرآن من عند اللّه، إذ هى تؤكد لنا علم اللّه بالغيبيات و هيمنته على المخلوقات أ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك/ ۱۴] إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ [القمر/ ۴۹] و هى برأيه ظلال من المعرفة تساعدنا على تصور عظمة اللّه فى كتابه المسطور، و أنه على النحو الذى تجد عظمته فى كتابه

المنشور کتاب الوجود، فنقف أمامه سبحانه خاشعین مسلمین مؤمنین قانتین. و یستنتج الدکتور من ذلک ضابطا أو شرطا للتعامل معها من خلال قوله «۱» «و أبحاثنا العلمیة- معشر البشر- ینعکس علیها قصور مدارکنا و قدراتنا، و من ثم فهی أقل من أن نفهم فی ضوئها کتاب اللّه، و إنما الصواب و المنطقی أن نفهمها فی ضوء کتاب اللّه، فإن الکامل هو الذی یحکم علی الناقص»، إلا أن الکاتب، و رغم کون کتابه محصورا بشطحات مصطفی محمود فی تفسیراته العصریة، یطرح حکما قاسیا حینما یؤکد علی «۲» «إن الإلحاح علی صوغ المفاهیم الإسلامیة و نصوص الشریعة

(_____ ۱) شطحات مصطفی محمود فی تفسیراته العصریة للقرآن الکریم- د. عبد المتعال الجبری، ص ۲۳. (۲) المصدر السابق، ص ۱۲. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۲۹ فی قوالب النظریات العلمیة المعاصرة، له خطره علی الإسلام ذاته فی المدی البعید لحرکة الحرب ضد الإسلام»، و یضرب مثلا- علی ذلک العلاقة التی قامت بین المسیحیة و العلم حینما حاولت أن تدخل شروح الإنجیل کدراسات فی الطبیعة و الفلک و الریاضة و الطب و شتی العلوم، و درست هذه بقوانینها علی أنها وحی مقدس، فلما سقطت هذه العلوم بالتطور سقطت المسیحیة معها، و کذلک الحال مع الدیانة الزرادشتیة عند ما وضع علماء الدین و مدارسهم، التی کانت تهیمن علی الثقافة، ما لیس من الدین من علوم الفلک و الطبیعة و غیرها، فلما جاءت الفلسفات الیونانیة و السوریانیة سقطت الدیانة الزرادشتیة مع علومها، و کذلک بعض الأدیان الأخری. ثم یطرح الکاتب سؤالا خطرا أکثر «۱» «هل تشجیع المستعمر لهذا النمط من التفاسیر أولا ... ثم انسیاق المخلصین فی هذا التیار دون سوء قصد ثانیا، یسلمنا إلی المأساة التی تحطمت المسیحیة علی صخرتها؟ إنها محاولات- لا شک- خیر منها عدمها و أولی ألا تسمی تفسیرا للقرآن، و مع ذلک فلن تنال من الإسلام شیئا إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ [الحجر/ ۹]»، و کم سبقت فی کیده محاولات فباءت بالفشل: کناطح صخرة یوما لیوهنها* لم یضرها و أوهی قرنه الوعل إذن، فالمسألة أخطر من أن نمرّ علیها مرور الکرام، حیث دخل الاستعمار فیها بشکل غیر مباشر، و لو عدنا قلیلا إلی قصة تفسیر القرآن عبر التاریخ، و ما دخل علیها من انحرافات سنجد أن هذا الانحراف فی التفسیر العلمی- إذا صح الادعاء به- یکون لیس جدیدا علی محاولات تفسیر القرآن بأشکال و أسالیب مختلفة، فما ذکره الشیخ خالد عبد الرحمن العک فی کتابه «أصول التفسیر و قواعده» عن الاتجاهات المنحرفة فی التفسیر عبر التاریخ قوله «۲» «إن مما لا- شک فیه أن إخضاع تفسیر القرآن الکریم لمیول شخصیة، و مذاهب ذات مفاهیم مغالیة، فتح علی المسلمین باب شرّ خطیر، و لج منه أعداء الإسلام للدّس فیه و تشویه صورته و إفساد عقائده، کما أنه دلف منه أصحاب البدع إلی ترویج بدعهم متسترین بآیات اللّه تعالی، کما منی التفسیر بأصحاب المیول المختلفة و النزعات المنحرفة حین وضعوا أقوالا فی التفسیر نسبوها إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أو إلی بعض أصحابه زورا و بهتانا ...».

(_____ ۱) شطحات مصطفی محمود فی تفسیراته العلمیة للقرآن الکریم- د. عبد المتعال الجبری، ص ۱۳. (۲) أصول التفسیر و قواعده- خالد عبد الرحمن العک، ص ۲۲۷- ۲۲۸. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۳۰ إذن، فالانحرافات التی دخلت علی تفسیرات القرآن کثیرة و متنوعة، و لکن کل هذا ما کان لیضر القرآن شیئا، فأخطاء التفسیر لا تقدح فی القرآن، و إنما بالمفسرین أنفسهم، فهم الذین أخطئوا، قصدا أو بلا قصد. و یرجع الشیخ خالد العک عوامل هذا الانحراف إلی ثلاثة عوامل: أولها: فساد نوایا المفسرین لتحقیق غایات نکرة أو مشبوهة، و ثانیها: أن یعتقد المفسر معنی من المعانی ثم یرید أن یحمل ألفاظ القرآن الکریم علی ذلک المعنی الذی یمیل إلیه و یعتقده، و ثالثها: أن یفسر القرآن بمجرد ما یسوغ أن یریده بکلامه ممن کان من الناطقین بلغة العرب، و ذلک بدون نظر إلی غایة المتکلم بالقرآن و هو اللّه تعالی، و إلی المنزّل علیه، و هو رسول اللّه، و المخاطب به و هم الناس جمیعا. و یظهر انحراف التفسیر فی العامل الأول بسوء النیة، و الثانی فی حمل الألفاظ القرآنیة علی المعنی الذی یمیل إلیه، و یعتقده من غیر نظر إلی ما تحمله الألفاظ من المعانی الواضحة و من الدلالة و البیان، و العامل الثالث إثبات المعنی الذی یراه المفسر، من غیر نظر إلی ما یصلح للمتکلم بالقرآن، و هو اللّه تعالی و

المخاطب به و سياق الكلام. إن صور الخطأ فى العامل الثانى يظهر من خلال كون المعنى الذى يريده المفسر صوابا، غير أن لفظ القرآن لا يدل عليه و لا يراد منه، كتفاسير بعض الصوفية و الوعاظ الذين يفسرون القرآن بمعان صحيحة فى ذاتها لكنها غير مرادة فى النص و إن كان المعنى الظاهر لا ينافيها، و قد تظهر صورة الخطأ بأن يكون المعنى الذى يريده المفسر صحيحا لكن ظاهر النص لا يحتمله، كتفاسير بعض الصوفية الذين يفسرون القرآن بمعان إشارية صحيحة فى حد ذاتها، و لكنهم يقولون إن المعانى الظاهرية للآية غير مرادة، و هو أقرب ما يكون إلى تفسير الباطنية، و قد تظهر صور الانحراف بأن يكون المعنى الذى يريده المفسر خطأ، و هو مع هذا يحمل عليه لفظ القرآن مع أنه لا يدل عليه و لا يراد منه. و قد تظهر هذه الصور بأن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ بيّنا، و هو مع هذا يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه و يراد به و يحمله على ذلك الخطأ تعمدا، و هذه الصورة تنطبق على أهل البدع و المذاهب الباطلة من الغلاة و المتعصبين. أما صور الانحراف، التى تظهر فى العامل الثالث، فتظهر من خلال أن يكون اللفظ محتملا للمعنى الذى ذكره المفسّر لغة، و لكنه غير مراد، و ذلك كاللفظ الذى يطلق فى اللغة على معنيين أو أكثر و المراد منهما واحد بعينه حسب السياق، فيأتى المفسّر فيحمله على معنى آخر من معانيه غير المعنى المراد. أو قد يظهر بأن يكون الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۳۱ اللفظ موضوعا لمعنى بعينه و لكنه غير مراد فى الآية، و إنما المراد معنى آخر غير ما وضع له اللفظ بقرينة السياق مثلا فيخطئ المفسّر فى تعيين المراد لأنه اكتفى بظاهر اللغة فيفسر اللفظ على معناه الوضعى. إذن، هذه هى الاحتمالات و الانحرافات التى كشف عنها تاريخ تفسير القرآن فى الماضى، و يمكن من خلالها معرفة كثير من الأخطاء التى وقع بها المفسرون فى السابق لعدم تقيدهم بشروط التفسير الموضوعة له، و لأن السبب الأساسى الذى كان يحرّكهم هو البدع الباطلة التى دعتهم إلى تحريف الكلم عن مواضعه، و فسروا كلام اللّه تعالى و سنة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بغير ما أريد به، و تأولوه على غير تأويله. فأصحاب المنهج الفلسفى الكلامى خاضوا فى تفسير الآيات المتشابهات و تأويل الصفات على مقتضى العقل فقط، و أرادوا من الآيات أن تكون أدلة شاهدة على أفكارهم، فأخذوا فى تأويلها بشتى الوجوه حتى يطابقوها على ما يريدون، و إذا ما وجدوا آيات تقف ضد أفكارهم أخذوا فى تأويلها لتطابق أصولهم. و أما أصحاب المنهج الصوفى فقد استخدموا المنهج الإشارى الرمزى لآيات القرآن، لاعتقادهم أن كل آية فى القرآن تخفى وراءها معنى باطنا مقصودا لا يكشفه اللّه إلا للخاصة منهم، و أن المعرفة الحقة اليقينية لا تدرك إلا بالتأويل الباطنى العميق و المجاهدة النفسية فى حالات الكشف العليا، و أن الوقوف على ظواهر النصوص القرآنية حجاب يمنع من الوصول إلى معرفة حقائق الأمور، و أن علم الظواهر يدخله الظن و الشك، و الكشف الباطن يرفع الظن و يزيل الشك. و أما أصحاب الغلو و المتعصبين فقد دأبوا على حمل الآيات القرآنية بشكل متكلّف لتأييد آرائهم و تثبيت أفكارهم، فالخوارج و الجبرية و المعتزلة ... هم أصحاب هذا المنهج، و من هنا أيضا يمكن وصف تدخل السياسة فى تفسير القرآن حينما أخذ بعض المفسرين يشير إلى طوائف الحرورية و الخوارج، بل و حرب على و معاوية و غيرها على أن لها إشارات دالة فى القرآن الكريم، و قد كان للشيعة تفاسير خاصة أيضا فى هذا المجال. و إذا عرفنا أن كل هذه الانحرافات قد دخلت فى التفاسير عبر التاريخ، رغم ادعاء كل فئة إلى أنها هى الصواب و غيرها الخطأ، حتى عادت حركة التفسير من جديد إلى الوراء لتنقية تفاسير القرآن من الأغاليط، فاتجه بعض المتأخرين إلى الوقوف عند حدود تفسير الرسول و الصحابة و التابعين له وقوفا حادا، و مع هذا فقد كان للإسرائيليات نصيب كبير فى بعض هذه التفاسير لم يستطع أن يتخلص منها كليا .. لقد كانت الصورة الكئيبة، التى عاشتها الأمة الإسلامية حتى القرن التاسع عشر، الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۳۲ صورة تعكس وقف النشاط الفكرى و العلمى و سيادة الخرافات، و اصطبغت العقلية الإسلامية بصيغة القعود و التواكل و انتشار الجهل، و لما كان الدافع الأساسى لحركة هذه الأمة و انبعاثها هو القرآن الكريم فكان يجب أن يقع اللوم على المفسّرين، الذين أقعدوا القرآن بتفاسيرهم و خرافاتهم على أن يقوم بفاعليته الأساسية فى بعث الأمة، و أن يبقى منارا قائدا لها فى كل زمن و حين، و لهذا نرى أن بدايات حركة النهضة العربية انطلقت من إعادة النظر إلى القرآن و إعطائه دوره فى بعث الأمة، و ذلك من خلال فهمه الفهم الصحيح، و تجاوز كل التفسيرات المشوّهة التى طرحت كل شىء

فی أقوالها إلا القرآن، و قد تجمد القرآن فی کتبهم فی أحسن أحواله بدراسات لغویة و لفظیة و بلاغیة و نحویة و معان جامدة تسودها الإسرائیلیات و الخرافات الباطنیة، حتی غطت بغبارها علی روح القرآن الحقیقیة التی کانت أساس بعث أمة أمیّة قادت العالم فی أنصع و أنضج حضارة فی تاریخ العالم، من هنا کانت دعوة جمال الدین الأفغانی إلی النهضة و الیقظة بإعادة النظر فی تفسیراتنا للقرآن. یقول الدکتور محسن عبد الحمید و هو یبحث المدرسة الحدیثة فی تفسیر القرآن «۱»: «هاجم الأفغانی بشدة المناهج التفسیریة التی أقحمت علوما و مصطلحات غریبة عقلیة و لغویة و نقلیة فی تفسیر الآیات، فحجبت حقائقه عن الناس، و صنعت من تفسیر آیاته أحاجی معقدة لا یستطیع إلا العالم الخبیر أن یقترب منها، و تحوّلت کتب التفسیر إلی میادین تعبیریة بالغة الصعوبة یستعرض فیها العالم قوته کلها لإغلاق العبارات، فحرم المسلم من تذوق القرآن و فهم آیاته و الانفعال بروحه. و دعا الأفغانی إلی فهم القرآن و السنة النبویة الصحیحة و أعمال السلف الصالح، أما ما تراکم علیه و تجمّع حوالیه من آراء الرجال و استنباطاتهم و نظراتهم فینبغی ألا نعوّل علیها و حیا، و إنما نعوّل علیها رأیا، و لا نحملها علی أکفنا مع القرآن فی الدعوة إلیه و إرشاد الأمم إلی تعالیمه ... و کان یدعو إلی منهج فی التفسیر یقلع ما رسخ فی عقول العوام و معظم الخواص من فهم بعض العقائد الدینیة و النصوص الشرعیة علی غیر أوجهها، مثل حمل نصوص القضاء و القدر علی معنی یوجب علیهم ألا یتحرّکوا إلی طلب مجد أو تخلص من ذل». و هکذا نری أن الدکتور محسن عبد الحمید یعتقد أن الأفغانی و محمد عبده، و رشید رضا أعادوا للقرآن صورته الحقیقیة بعد نزع کل الخرافات و التأویلات (_____ ۱) تطور تفسیر القرآن- د. محسن عبد الحمید، ص ۲۱۰. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۳۳ و التفسیرات اللغویة و اللفظیة، و کل ما حجب حقیقة القرآن و روحه عن المسلمین، و کان تفسیرهم المشترک «المنار» هو خیر التفاسیر التی قدمت لبدایة التفسیرات الحدیثة للقرآن «۱»: «إن ما یؤاخذ صاحب المنار المفسرین علیه هو إخضاعهم النصوص القرآنیة الواضحة للمصطلحات العلمیة و الفلسفیة و الأصولیة الحادثة، دون أن ینطلقوا من ضوابط صحیحة فی التفسیر اتفق علیها المحققون من علماء القرآن و فقهاء الأمة، فی تحدیدهم مفاهیم الألفاظ و استنباطهم الأحکام من مدلولات التراکیب، و بناء الأفکار الإسلامیة علی اتجاهات متینة متفقة مع تلکم الضوابط». لقد رد تفسیر المنار علی المفسرین بالرأی و علی الصوفیة و علی الباطنیة و أهل البدع، ثم قام بتنقیة التفاسیر من الإسرائیلیات الکثیرة و الأخبار الواهیة التی أفسدت، علی کثیر من المسلمین، حقائق الدین و قوانین الحیاة، فکوّنت عندهم عقلیة خرافیة تصدق کل خبر دون تمحیص أو تدقیق مما یصطدم أساسا مع الإسلام الذی دعا إلی التفکیر و النظر. علی أن الملاحظ علی هذا المنهج التفسیری العقلی، و نتیجة لموقعه بین ضغط الخرافة من جهة و ضغط الفتنة بالعلم من جهة أخری، مما جعله یمیل إلی جعل مألوف السنن الکونیة هی القاعدة الکلیة لسنة اللّه، فردّوا الکثیر من الخوارق إلی مألوف سنة اللّه دون الخارق منها، و إلی تأویل بعضها بحیث یلائم المعقول، و إلی الحذر و الاحتراس الشدید من الغیبیات، و هو ما ذکره سید قطب فی ملاحظاته علیه. إن هذا المنهج العقلی فی التفسیر هو الذی قاد لأن ینص، فیما ینص علیه من ضوابط، علی «۲» «المبدأ القائل کلما ازددنا معرفة بما فی الوجود من الأسرار و القوانین ازددنا علما بما فی کتاب اللّه، ذلک لأن الکون المنظور أعظم و أدق تفسیرا للکون المقروء، فلا بد إذن من الاستفادة من العلوم المتنوعة و الثقافات الإنسانیة المتعددة الحدیثة فی تفسیر القرآن فی داخل الضوابط الأصولیة المعروفة بین علماء الإسلام، التی تضبط الاتجاه لحرکة تفسیر القرآن فی کل عصر، و قد تکون هذه هی النافذة التی بدأ منها دخول التفسیر العلمی إلی القرآن بالمفهوم المعاصر، خاصة و أنه تاریخیا بدأ فیما یبدو بعدها بقلیل، و إن کان لم یلتزم فی بدایاته بالضوابط الأصولیة الخاصة بالتفسیر فانحرف إلی ما انحرف إلیه». لا شک أن التطرف فی التفسیر العلمی هو الذی جعله ینحرف عن مساره کتفسیر، إضافة إلی عدم تقیده بالضوابط المعمول بها للتفاسیر، و قد لخص الشیخ خالد العک (_____ ۱) تطور تفسیر القرآن- د. محسن عبد الحمید، ص ۲۱۳. (۲) المصدر السابق، ص ۲۲۱. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۳۴ انحراف تفسیر الشیخ طنطاوی

جوهری بالصور التالیة «۱»: ۱) یفسّر الآیات القرآنیة تفسیرا لفظیا مختصرا، ثم سرعان ما ینطلق لذکر أبحاث علمیة مستفیضة یسمیها «لطائف أو جواهر»، و تلک الأبحاث المستفیضة بطبیعة الحال أفکار علماء الشرق و الغرب فی عصره، و هو بهذا جعل تفسیره یخرج عن موضوعه الأساس ألا- «و هو إظهار معانی القرآن بالطریقة الشرعیة» حتی قال بعض نقاده «فیه من کل شیء سوی التفسیر». ۲) إیداعه فی تفسیره صور النباتات و الحیوانات و المناظر الطبیعیة و تجارب العلوم، و هذا ما لا یعهده المسلمون فی تفسیر القرآن العزیز. ۳) اعتماده فی تفسیر کثیر من الحقائق الدینیة التی جاء بها القرآن نقیة صافیة، علی ما جاء عن أفلاطون فی نظریته، و هذا ما لا یجوز شرعا لأن القرآن بحقائقه الثابتة الناصعة بغنی عن أوهام الفلسفة الأفلاطونیة. ۴) رکونه إلی تفسیرات الباطنیة الباطلة فی رسائل إخوان الصفا، فهو حین ینقلها یبدی رضاه عنها و تصدیقه بها مع أنها تخالف الثابت من نصوص الکتاب و السنة. ۵) استخراجه علوما مزعومة بواسطة حساب الجمل الذی لا یوصل إلی حقیقة ثابتة، و هذه طریقة أخذت عن الیهود، کما أنه یعتمد أوهام تحضیر الأرواح التی یقول بها الخرّاصون. هذه هی مجمل الأمور التی جعلت تفسیره یخرج عن منهج علمائنا الثقات الأثبات فی تفسیر القرآن الکریم. أما مدّعی التجدید، کما یسمیهم خالد العک، فیذکر ثلاثة منهم، هم مصطفی محمود فی «تفسیراته العصریة للقرآن الکریم»، و الشیخ أبو زید الدمنهوری فی «الهدایة و العرفان فی تفسیر القرآن»، و الأستاذ عبد الودود یوسف فی تفسیره «تفسیر المؤمنین»، و یذکر أن انحرافات مصطفی محمود نشأت من النقاط التالیة «۲»: ۱) تصویره أن القرآن الکریم إذا لم یقدّم للناس علوم الطب و التشریح و الریاضیات و الفلک و أسرار البیولوجیا و الإلکترون و الذرة، فلیس صالحا لزماننا و لا جدیرا بأن تسیغه عقلیتنا العلمیة و یقبله منطقنا العصری. ۲) تفلّته من قیود الآداب الإسلامیة فی التعبیر فی التفسیر، فوقع فی أسر الانفعال و الرغبة فی التعبیر المتحرر من الألفاظ الرصینة الهادفة لأسمی (_____ ۱) أصول التفسیر و قواعده- د. خالد عبد الرحمن العک، ص ۲۵۳. (۲) المصدر السابق، ص ۲۵۵. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۳۵

المعانی التی تلیق أن یؤتی بها فی تفسیر کلام اللّه تعالی، حیث لم یهذّب عباراته بالتأدب فی حق اللّه تعالی و حق کلامه الکریم، کما لم یهذب ألفاظه مع علماء الإسلام فقدح بهم علی لسان المتصوفة النظریین. ۳) تمثله فی کتابته بصورة المتلهّف الظمآن إلی آفاق روحیة مندفعة اندفاع من أتخمه الشبع المادی حتی أحس بثقل أغلاله، فانطلق وراء سراب للخلاص، غیر عابئ بأی شیء، فوقع فی شطحات الصوفیة النظریة، کما وقع فی تأویلات الباطنیة. ۴) و فی ضجیج العصرنة (الطنانة الرنانة)، یقدم تفسیره العصری فی صورة «العجائب و الغرائب» التی تبهر بصر العامة فلا تعد تری الرؤیة الصحیحة التی تمیز الحق من الباطل، و لا تقدر أن تفصل بین منطق التفکیر العلمی الصحیح و جرأة الادعاء. هذه هی مجمل الأسباب التی جعلت رجل العصر و العلم ینحرف فی تفسیراته العصریة للقرآن الکریم. أما الشیخ أبو زید الدمنهوری فقد أحدث ضجّة کبری فی أوساط علماء الأزهر، حیث أنکروا علیه منهجه المنحرف فی تفسیره، و انتهی الأمر بمصادرة الکتاب و الحکم علی صاحبه بالزیغ و الضلال. أما «تفسیر المؤمنین»، لعبد الودود یوسف، فیکفی أن البوطی قال عنه «أعتقد أن جمیع العلماء یتفقون علی أن هذا التفسیر یحوی بین دفّتیه أخطاء کثیرة جدا جدا، حتی لو تجاوزنا الأخطاء الشکلیة التی تکون فی العبارة بسبب الرکّة أو عدم جلاء المعنی، لأن الکاتب ربما لم یستطع أن یوضح فکرته. لو تجاوزنا هذا .... فإن هناک أخطاء أخری فی الصمیم، یعنی فی الأحکام فی تفسیر جوهر الآیات، و هذه الأخطاء، کما و کیفا، مهمة جدا». من کل ما تقدم، نری أن الأخطاء و الانحرافات، التی وقعت فی بعض التفسیرات العلمیة و المعاصرة، لم تقم علی أساس مبدئی أو تأصیلی، و إنما قامت و وقعت بسبب عدم التزام الضوابط العامة لأی تفسیر، و کل تفسیر لا یلتزم بالضوابط العامة الموضوعة من قبل علماء الإسلام لکل تفسیر، فإنه سینحرف عن مسیرته سواء کان تفسیرا علمیا أو صوفیا أو باطنیا أو کلامیا، لذا فإن جمیع الملاحظات الواردة علی النماذج المذکورة، فی جانب التفسیر العلمی و العصری، لا تختص بتفسیر دون تفسیر، فهی ملاحظات منهجیة یخطئ بها کل من یتجاوزها و یقوم بالتفسیر، لذا فلن الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۳۶ تکون حجة أو دلیلا حاکما لإهمال و ترک التفسیر العلمی للقرآن، بل و الإعجاز العلمی الجدید له. إن الأخطاء فی التفاسیر موجودة، کما ذکرنا سابقا، فلا یعنی هذا أن نترک

كل التفاسير لهذه الحجة، و نحن نرى أن الدكتور محسن عبد الحميد، بعد استعراضه للتفاسير عبر التاريخ، يقول عن هذا الاتجاه العلمى «۱»: «الذى أعتقده أن من الضرورى أن نستفيد من تطور العلوم و المعارف فى فهم كثير من الآيات الكونية فى القرآن الكريم، و الخطأ فى التفسير حينئذ لا يكون خطأ فيه، إذ من المسلمات عند العقلاء أنه ليس كل ما يذكره المفسرون، فى تفاسيرهم فى تفسير القرآن صحيح». على أن الحجة الأقوى، التى يذكرها المعترضون على مثل هذا التفسير، تتلخص، كما رأينا، عند العقاد و عند محمد الصادق عرجون و غيرهم كثير، هو الخوف من تسمية الحقيقة القرآنية الحقيقة العلمية، ثم يمضى زمن فنكتشف علميا أن هذه الحقيقة ليست علمية، و بالتالى ينتج أن نخطّئ القرآن أو نغير تفسيره عند كل مستجد من الحقائق العلمية، خاصة و أن العلوم تتطور و بشكل سريع يجعلها قد تنقلب من النقيض إلى نقيضه أحيانا، و بذلك نكون قد نزعنا عن القرآن يقينه المطلق المشخص، و سلّمنا أمره إلى التجارب العلمية الاحتمالية أو النظريات العلمية الافتراضية. و هنا يذكر الأستاد عبد الوهاب خلاف نصا واضحا لا لبس فيه، يدافع فيه عن هذا السلوك و الرأى فيقول «۲»: «و بعض الباحثين لا- يرتضون الاتجاه إلى تفسير آيات القرآن بما يقرره العلم من نظريات و نواميس، و حجّتهم أن آيات القرآن لها مدلولات ثابتة مستقرة لا تتبدّل، و النظريات العلمية قد تتغير و تتبدل، و قد يكشف البحث الجديد خطأ نظرية قديمة، و لكن لا أرى هذا الرأى، لأن تفسير آية قرآنية بما كشفه العلم من سنن كونية ما هو إلا فهم للآية بوجه من وجوه الدلالة على ضوء العلم، و ليس معنى هذا أن الآية لا تفهم إلا بهذا الوجه من الوجوه، فإذا ظهر خطأ النظرية ظهر خطأ فهم الآية على ذلك لا خطأ الآية نفسها، كما يفهم حكم من آية و يتبيّن خطأ فهمه بظهور دليل على هذا الخطأ». و إذا كان هذا الجواب لا يكفى لأنه يترك فكرة التغيّر على العلم قائمة و بالتالى يتغير التفسير معها، فإننا نجد تتمة الجواب الأوفى عند شعراوى الذى يقول، فى كتابه «هذا هو الإسلام»، و فى حديثه عن علاقة الحقيقة العلمية و القرآن، و تأكيده أن الحقيقة العلمية يجب أن تلتقى مع القرآن لأن القرآن كلام اللّه و حقائق الكون خلق

---

(۱) تطور تفسير القرآن- د. محسن عبد الحميد، ص ۲۲۶. (۲) علم أصول الفقه- عبد اللّه خلاف، ص ۳۰. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۳۷ اللّه، فلا بد أن ينسجما يقول «۱»: «إن الناس لا يفطنون إلى أهمية تحديد ما هو العلم؟ لا يقال علم إلا إذا كانت قضية و أنت تجزم بها و هى واقعة و عليها دليل، بغير ذلك لا يكون علما، و العلم من أجل اكتشاف حقائق الكون مفهوم أن يبدأ بالملاحظة ثم التجربة ثم النظرية ثم الحقيقة العلمية، فلا يقال حقيقة علمية إلا فى نهاية المطاف بأن تسلم، و كل الجزئيات تنطبق على هذه الحقيقة و لا- تشذ عنها حقيقة، فإذا جئت لتخضع القرآن لملاحظة علمية نقول لك هذا غلط، لأنه من الجائز ألا تنجح الملاحظة بالتجربة، و إذا جئت لتخضع القرآن لتجربة علمية نقول أيضا هذا غلط، لأنه من الجائز ألا تنفع التجربة، و إذا أردت أن تخضع القرآن لنظرية نقول هذا غلط أيضا، لأن النظرية يمكن أن تخطئ، لكن إذا وصلت إلى حقيقة علمية نقول لك: إن لم يكن فى القرآن ما يؤيدها فليس فيه قطعا ما يعارضها، لكن نحن نقول أيضا إن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة باستمرار، ما يسمى بالحقائق العلمية اليوم يخضع للتغيير و التبديل غدا، هنا لا تكون حقيقة». و يضيف شعراوى أيضا: «إذن، فالذين يمنعون أن القرآن قد يلتقى ببعض الحقائق العلمية نقول لهم لا- لكن حققوا أولا- أنها حقيقة علمية، فإذا وصلت مسألة إلى مرتبة الحقيقة العلمية فالقرآن لا يعارضها، بل يمكن أن يؤيدها». إذن، فالخطأ ليس خطأ الحقيقة العلمية و إنما خطأنا نحن فى طريقة قراءتنا لها فى القرآن. يجب إذن أن نضع ضوابط لطريقة فهمنا و تفسيرنا للقرآن على ضوء العلم بهذه الدقة لكى لا تشتبه علينا الأمور، لأن أكثر الملاحظات الواردة على التفسير العلمى جاءت من أسلوب التعامل بين الحقيقة العلمية و القرآن، و على هذا الأسلوب، سليما أو خاطئا، كانت الأحكام تطلق على التفسير العلمى للقرآن رضا و قبولا، أو رفضا و احتجاجا، على أن من الملاحظات التى ذكرت على هذا التفسير أيضا أنها قد تطغى تلك المباحث عن المقصود الأول فى القرآن، و هو الهداية و الإعجاز، و هو ما وصف به تفسير طنطاوى أن فيه كل شىء إلا التفسير، لأن إسراف المفسّر من هذا يجعل التفسير ليس بتفسير، حيث يكون أشبه بكتب العلوم و الفنون منه بكتب التفسير. لقد ذكر الأستاذ محمد عبد العظيم الزرقانى فى كتابه «مناهل العرفان فى علوم القرآن» أن من آثار امتزاج العلوم الكونية بالتفسير ما يلى «۲»:

(_____ ۱) هذا هو الإسلام- محمّد متولى شعراوى، ص ۲۵. (۲) مناهل العرفان فى علوم القرآن- محمّد عبد العظيم الزرقانى، ج ۲ ص ۱۰۰. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۳۸ ۱) مسايرة أفكار الناس و معارفهم، و تفسير القرآن لهم تفسيرا يشبع حاجاتهم من الثقافة الكونية. ۲) إدراك وجوه جديدة للإعجاز فى القرآن من ناحية ما يحويه أو يرمز إليه من علوم الكون و الاجتماع. ۳) دفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم و الدين. ۴) استمالة غير المسلمين إلى الإسلام من هذا الطريق العلمى الذى يخضعون له دون سواه فى هذه الأيام. ۵) الحث على الانتفاع بقوى الكون و مواهبه. ۶) امتلاء النفس إيمانا بعظمة اللّه و قدرته، حينما يقف الإنسان فى تفسير كلام اللّه على خواصّ الأشياء و دقائق المخلوقات حسب ما تصوّرها علوم الكون. كما أن لامتزاج العلوم الكونية و الآدمية بالتفسير آثارا أخرى مشتركة بينهما فيما يأتى: أ) زيادة الثقة بالقرآن و عروبته و معارفه و إعجازه. ب) الإيمان بأنه كتاب غنى بكل ما يحتاجه إليه البشر من ألوان السعادة. ج) الإيمان بأنه كتاب الساعة و دستور الناس إلى يوم القيامة، يصلح لكل زمان و مكان، و لا يستغنى عن كنوزه و ذخائره إنسان. إن أكثر الملاحظات و التفسيرات الخاطئة المستشهد بها لدى المعترضين تقوم على كيفية و أسلوب تعامل القرآن مع الحقيقة كما ذكرنا، و أحيانا نجد أن المؤيدين و المعارضين فى التفسير على ذات الآية القرآنية و ذات الحقيقة العلمية، و لكن أسلوب أحدهما يقود إلى بينة للمعارضين و أسلوب الآخر يقود إلى بيّنة للمؤيدين، فالاختلاف إذن ينصب على طريقة تعامل و تعبير كل منهما عن هدفه، و إذا ما اتفقنا على أسلوب موحّد فإن كثيرا من ضجيج و براهين المحتجين و المعترضين على التفسير العلمى تسقط و لا تصلح للاحتجاج بها، لذا فإن الدكتور محسن عبد الحميد يضرب مثلا على المظهرين اللذين يجب أن يتخذهما التفسير العلمى فى نظره، فيقول «۱»: «أولهما: تسخير الحقائق العلمية فى كشف مدلول الآية القرآنية، فاحتمال الخطأ هنا غير قائم، على سبيل المثال قوله تعالى قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (۴۹) قالَ رَبُّنَا الَّذِى

(_____ ۱) تطور تفسير القرآن- د. محسن عبد الحميد، ص ۲۲۶. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۳۹ أَعْطى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى [طه/ ۴۹، ۵۰]، فإذا جئنا فسخّرنا علم الحياة كلها فى تفسير هذه الآية و بيان عظمة الخلق الإلهى و دقته كان حسنا و مفيدا جدا، لأننا سنبين هنا سر الإعجاز فى هذه الآية الكريمة. فنحن هنا نتحدث فقط عن تفاصيل خلق الكائنات و سبل الهداية المتنوعة الدقيقة و العجيبة التى زوّد اللّه بها تعالى تلك الكائنات، و لم ندّع أن القرآن فيه تفاصيل علم الكائنات، لأنه من المعلوم أن تلك التفاصيل متروكة للعقل يكتشف فيها قوانين الحياة الدقيقة المتنوعة عبر الزمان و المكان. و ثانيهما: تفسير آية قرآنية بحقيقة علمية أو نظرية علمية محدّدة المعالم، ففى قوله تعالى أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها [الرعد/ ۴۱] لا يمكن أن نقطع بأن الآية تدلّ دلالة قطعية على كروية الأرض، أو هى المعنى المقصود فى الآية، لعدم قيام الدليل القطعى على ذلك لا من منطوق الآية و لا مفهومها، و لكن نستطيع أن نقول إنه من الاحتمال أن تكون كروية الأرض ضمن معنى الآية الكريمة، و كذلك قوله تعالى أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ [الأنبياء/ ۳۰]. فالنظريات العلمية فى نشأة الكون تذهب إلى أن النجوم و الكواكب كانت، فى مبدأ نشوئها، كتلة سديمية كبيرة جدا تكونت منها تلك النجوم و الكواكب بفعل قوانين طبيعية فيزيائية معينة، فإذا جاء المفسّر فادّعى أن المقصود بمعنى الآية تلك النظريات أخطأ فى مدّعاه، و إذا قال ليس بعيدا أن يكون ذلك المعنى هو المراد كان الاحتمال فى صدق مدّعاه قائما، و حينئذ لم يفعل شيئا إلا أنه استأنس بتلك النظريات فى إلقاء الضوء على معنى الآية، فإذا أخطأ فى التفسير، لبطلان تلك النظريات فى يوم من الأيام، كان الخطأ خطأ التفسير و ليس بطلانا لمعنى القرآن الكريم فى آية من آياته». إن جميع هذه المحاولات التوفيقية، بين مؤيدى التفسير العلمى و معارضيه، استدعت أن يوضع للتفسير العلمى ضوابط محددة للمفسرين حتى لا يقع أحد فى التقول على اللّه بغير علم، فمن تقيد بها عصمته من الخطأ و الخطل. و مجمل هذه الشروط التى وضعها العلماء هى «۱» : ۱) مراعاة شروط التفسير العامة لكل تفسير و المقرة من قبل الأصوليين.

(_____ ۱) أصول التفسير و قواعده- د. خالد عبد الرحمن العك، ص ۲۲۴. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۴۰ ۲) أن يكون التفسير للآيات الكونية مطابقا لمعنى النظم القرآنى. ۳) ألا يخرج حد التفسير إلى عرض النظريات العلمية المتضاربة. ۴) أن يتثبت المفسر من النظريات العلمية التى يفسر بها الإشارات القرآنية الكونية. ۵) ألا يحمل الآيات القرآنية على النظرية العلمية حملا، فإن كانت النظرية مطابقة للمعنى فبها و نعمت، و إلا- ... فلا. ۶) أن يجعل مضمون الآيات القرآنية الكونية أصلا للمعنى الذى يدور حوله الإيضاح و التفسير. ۷) أن يلتزم بالمعانى اللغوية فى اللغة العربية للآيات التى يريد إيضاح إشاراتها العلمية، لأن القرآن عربى. ۸) ألا يخالف مضمونا شرعيا فى تفسيره. ۹) أن يكون تفسيره مطابقا للمفسّر من غير نقص لما يحتاج إليه من إيضاح المعنى، و لا زيادة لا تليق بالغرض و لا تناسب المقام. ۱۰) أن يكون مراعيا للتأليف بين الآيات و تناسبها و مؤاخاتها، فيربط بينها لتكون وحدة موضوعية متكاملة. و يبقى السؤال مطروحا عن مدى الحاجة و الضرورة التى تجعلنا نطرق تفسير القرآن علميا فى هذا العصر، أ لا يكفى فى دعاية البشر إلى الهداية المضامين و الأفكار التى فهمها العرب و المسلمون من القرآن فى القديم؟ و لما ذا ندخل هذا الباب الذى كثر فيه الخطأ حتى خشينا على القرآن أن يزداد تفسيرا باطنيا جديدا؟ ثم هل من القرآن نفسه ما يدعونا إلى طرق هذا الباب و يأمرنا به لكى نكون مأمورين شرعا به؟ و لو افترضنا أننا لم نطرق هذا الباب فهل نكون بهذا قد حجّمنا القرآن و قيّدناه بعصر دون عصره؟ و قللنا من صلاحيته لكل زمان و مكان؟ و إذا كان القرآن طالبنا بالتدبّر و التفكّر، أ لا يكفى سلاح العقل و ما قدّمه المتكلمون و الفلاسفة المسلمون لاستيعاب عملية التدبّر و التفكر القرآنى؟ و لا- نحتاج إلى تجارب العلماء و بحث المختبرات التى تخرج كل يوم علينا بنظريات علمية جديدة و قوانين عن الكون و الطبيعة و الحياة، تنقض فيها ما سبق من نظريات و قوانين كانت تسميها هى نفسها علمية فتجاوزتها إلى غيرها، و لم تتوقف الحياة على شكل دون شكل من هذه النظريات و القوانين؟ و أخيرا، هل نستطيع مثلا أن نستغنى عن التفسير العلمى للقرآن و الإعجاز الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۴۱ العلمى فى هذا العصر، الذى لا يعرف إلا لغة العلم و الحضارة و الطاقة و المادة و النسبية، و لغة الرقم الحسابى فى الكمبيوترات تتحكم فى كل مفردات حياته؟ و للجواب على هذه الأسئلة جميعا كان علينا استعراض أفكار و آراء و مضامين الذين يؤيدون التفسير العلمى، و ما يعنيه فى العصر الحاضر أمام تصادم الحضارات و الأفكار و صراعها بين الشرق و الغرب، و بين المادية و الروحية، و بين معسكرات الإلحاد و معسكر الإيمان و أسلحة العلم و مختبراته و بحوثه، التى تخدم أغراض كل معسكر و كل اتجاه. فهل نستطيع أن نقف على الحياد أو نرفض التعامل مع العلم المعاصر و صراع التلسكوبات و الأقمار الصناعية تزدحم فى الفضاء، و صراع الميكروسكوبات مع الخلية الحية و مع مفردات الذرة و جسيماتها حتى ضاق العالم من التسميات الجديدة للاكتشافات داخل كل منها، فاستخدموا الكمبيوترات المتقدّمة لخزن المعلومات عنها بدل الكتب و الأوراق التى لا تتسع لها؟ هل نستطيع أن ندّعى أن ديننا و قرآننا صالح لكل زمان و مكان و نحن جالسين على التّل لا نبدى رأيا، و ليس لنا رأى فى كل هذا لأن قرآننا نزل فى غير هذا العصر و لقوم أميين فسّروه عند معطياتهم اللفظية و البلاغية، و استخرجوا منه الأحكام التى يريدون و عمّموها، فنحن نطبقها كما هى و نفهم القرآن كما فهموه؟ ألا نكذّب نحن القرآن نفسه حينما نضعه هذا الموضع، و هو الذى دعا بأكثر من سبعمائة آية للتفكر و التدبّر علميّا بالكون و خلقه و خالقه، و يتوجه بالخطاب، فى خمسين موضعا، للذين يعقلون، و مائة موضع للذين يعلمون، و ثلاثين موضعا للذين يتفكرون و يتفقهون؟ ألا نكون مناقضين للقرآن نفسه و هو الذى يخاطبنا مباشرة بالجواب على كيف لفهم حقيقة الخلق أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (۱۷) وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (۱۸) وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (۱۹) وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ... الخ [الغاشية/ ۱۷- ۲۰] و إذا كان القرآن هو دليل و معجزة سيدنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنه نبى من عند اللّه، فكيف سنحاجج أبناء هذا العصر، علماء و مثقفين و عوام، بأن رسولنا مرسل إلى الخلق كلهم حتى قيام الساعة، و لا نبى بعده لأنه خاتم النبيين، إذا لم يكن هذا الدليل و هذه المعجزة قائمة بعملها الإعجازى لكل العصور و أبنائها المخاطبين بهذا النداء؟ و لو كانت هذه المعجزة معجزة لأبناء العصر الذى أنزلت عليهم فآمنوا بها فى وقتها، فما الذى يجعل أبناء عصرنا و العصور اللاحقة لا

معجزة لـديهم سوى الأخبار التاريخية عن هذه المعجزة، فما الفرق بينها و بين معجزات باقى الأنبياء الذين مضوا مع معجزاتهم الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۴۲ و ليس لهم دليل اليوم على صدق نبوتهم بمعجزاتهم غير أخبار يرويها التاريخ؟ «إن الإيمان بالنبوّة يقتضى وجود المعجزة، و التصديق الجازم بخوارق العادات يحتاج إلى برهان، فمعجزة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم هى القرآن، و لا تزال هذه المعجزة تتحدى منذ أكثر من أربعة عشر قرنا و إلى الآن، أما معجزة الأنبياء السابقين فإنها غير مدركة و لا محسوسة لنا فى الوقت الحاضر» «۱». إذن، فإن المعجزة هى دليل صدق الأنبياء على دعواهم، و لقد كان القرآن و لا يزال هو المعجزة المثبتة لنبوة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و فى ذلك يقول وحيد الدين خان ... «۲»: «عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: (ما من الأنبياء نبى إلا- أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، و إنما كان الذى أوتيته و حيا أوحاه اللّه إلى، فأرجو أنى أكثرهم تابعا ليوم القيامة). إن هذا الحديث النبوى يعين جوانب بحثنا الصحيحة، فهو يقول إن أهم و سائلنا لمعرفة النبى هو الكتاب الذى جاء به مدّعيا أنه من عند اللّه، و القرآن هو رسالة الرسول بين ظهرانينا، كما أنه يبرهن على صدقه، فما الخصائص التى تبرهن على أن القرآن من عند اللّه؟» و مما يذكره وحيد الدين خان فى الإعجاز هو إعجاز القرآن بالتحدى الدائم على أن يأتوا بمثله و نبوءات القرآن الغيبية، و من ثم الإعجاز العلمى فيه و يقول عنه «۳»: «إنه رغم نزول القرآن قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة لم يتمكن أحد من إثبات أية أخطاء علمية فيه، و لو أنه كان كلاما بشريا لكان هذا ضربا من المستحيل»، و يضيف فى موضع آخر «۴»: «فالقرآن الكريم هو المعجزة الدالة على صدق نبوة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و ما عدا القرآن من خوارق العادات التى ظهرت بين يديه فلا تعد من معجزاته لأنها لم تنقل بالتواتر، فضلا عن كون المعجزة بالنسبة إلى آخر الأنبياء لا بد أن تظل قائمة بالتحدى و تلك الخوارق لم تعد قائمة، يمكن أن توجد لدى غير المسلمين قناعات بصدق نبوة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم». إذن، فعلى القرآن أن يقول كلمته الإعجازية اليوم لكل العالم، و أن يتحدّاهم و كأنه نازل اليوم من عند اللّه، و أن يبقى متحدّيا إلى يوم القيامة لكل عصر بطابعه الذى يتميز به، و عصرنا عصر علم و ثقافة، فهل نجابه العالم بإعجاز بلاغى و لفظى و هو فيه من العلوم و المعارف ما لا يحيط به قلم و لا يحصيه رقم ...؟ و إذا ما تكاسلنا عن أن نعطيه دوره فإن العملية لا- تبقى فى حدود الاختيار لأن معنى هذا تكذيب

(_____ ۱) الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية- د. محمّد الخالدى، ج ۲، ص ۲۴۵. (۲) المصدر السابق، ج ۲، ص ۲۴۶. (۳) المصدر السابق، ج ۲، ص ۲۶۶. (۴) المصدر السابق، ج ۲، ص ۲۸۶. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۴۳ القرآن الذى قال إنه يتحدى العالم كله أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، و نكذب الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم الذى قال: أرسلت إلى الناس كافّة، فكيف يصدّقه العالم اليوم دون معجزة؟ فأى كفر بعد هذا؟ و ما نفعل بإيماننا إذا كنا نكذب قرآننا و نبينا، و ما الذى يبقى فى الإيمان بعد؟ إذن، فالإعجاز العلمى فى القرآن هو معجزة اللّه و رسوله إلى عصرنا، فكيف يجب أن نتعامل به؟ الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۴۵

التطبيق العملى من نظرية المنهج إلى التطبيقات العملية

اشارة

التطبيق العملى من نظرية المنهج إلى التطبيقات العملية لقد كانت بعض التجارب الفاشلة، التى ذكرناها سابقا و التى وقع بها المفسرون للقرآن تفسيرا علميا، قد دفعت بعض العلماء و الفقهاء لأن يقف موقف المعارض للتفسير العلمى، و ذلك كان لا بسبب عدم قبول القرآن للتفسير العلمى و إنما لأن الذين فسّروه آنذاك لم يلتزموا بالضوابط المحددة، سواء للتفسير بشكل عام و للتفسير العلمى بشكل خاص، و لذلك وقعوا فى أخطاء كثيرة فى مقابلة الآية القرآنية للحقيقة العلمية، و لأن حماستهم الزائدة دفعتهم، بمناسبة و غير مناسبة، لحمل آيات القرآن على المكتشفات و القوانين العلمية الحديثة مما جعلها تخرج بالآيات القرآنية عن معانيها اللغوية و مدلولاتها

الشرعية، و تنحرف بها عن الغاية و الهدف الساميين اللذين جاءت من أجلهما، و مما جعلها أيضا تقع فى كثير من المتناقضات حتى وصف أحد الكتاب عملهم بأنه «۱» «أشبه بالعبث منه بالدفاع عن القرآن أو إظهار إعجازه، بل ربما أوقع القرآن فى تناقض خطير بسبب تأييده لنظريتين متناقضتين بدون ضابط أو قانون من لغة أو شرع». و بعد أن حددنا شروط التفسير العلمى و ضوابطه، فلنأخذ نموذجا جيدا من التفسيرات العلمية التى التزمت بالضوابط المحددة لمثل هذا التفسير، بل و وضع هذا النموذج تحت عنوان (المعجزة القرآنية) للدلالة على مدى الثقة التى يوليها لهذا الجانب من التفسير للقرآن. يبدأ الدكتور محمد حسن هيتو كتابه المعجزة القرآنية (الإعجاز العلمى و الغيبى) بمقدمة يبنى عليها الكتاب و منهج الكتاب، و هى عن علاقة النبوة بالمعجزة و علاقة شمولية الرسالة بختم النبوة فيقول «۲»: «إن نبينا عليه الصلاة و السلام هو النبى الخاتم للنبوة، و رسالته هى الخاتمة للرسالات، و أنها باقية إلى يوم القيامة، و عامة لكل الأمم فى كل زمان و مكان، و لذلك كان لا بد للمعجزة من البقاء ليعاينها كل من آمن أو دعى إلى الإيمان إلى يوم القيامة». و بعد أن يذكر أن هناك أنواعا متعددة من

(_____ ۱) المعجزة القرآنية- د. محمّد حسن هيتو، ص ۱۵۲. (۲) المصدر السابق، ص ۹۰۷. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۴۶ الإعجاز، كالإعجاز الغيبى و الإعجاز اللغوى و الإعجاز العلمى، و بعد أن يشخص طابع العصر و سيادة المعارف العلمية و بناء فلاسفة الإلحاد إلحادهم على هذه الاكتشافات، من خلال ادعائهم أنهم عرفوا السبب و المسبب و العلة و المعلول عن طريق العلم اليقين، فلم يعودوا بحاجة اليوم إلى عزو هذه الظواهر، التى كنا نراها، إلى قدرة اللّه، و بالتالى وقع التناقض بين الكنيسة و العلم و الدين المسيحى و العلم، لأن الكنيسة بدينها، كما تعرضه، يتعارض مع العلم المعاصر. ثم ظهر الهجوم على جميع الأديان، و منها الإسلام، عن طريق ضعاف الإيمان فى ديار الإسلام، و بسبب ضعف المسلمين و غفلتهم و سيطرة أعدائهم عليهم، بعد كل هذا يقول المؤلف: «و هنا ظهرت المعجزة القرآنية كالمارد الجبار الذى لا يقف فى وجهه شىء إلا حطّمه، لتهتز الأبراج الوهمية التى بناها فلاسفة الإلحاد بالتمويه و التدليس على غفلة من دعاة الدين الحق و بعد عنهم، و لتقول للناس جميعا، من مؤمن و ملحد: مهلا أيها الناس، فإن هذا الذى وصلتم إليه لن يكون سببا للجحود و الإلحاد، و إنما هو من أعظم دعائم الإيمان و الإذعان ... فتنبه كثير من علماء المسلمين إلى آيات الإعجاز العلمى فى القرآن». إذن، فالإعجاز العلمى كان دعوة للإيمان ضد الإلحاد فى بدء ظهوره، و زاد إيمان المؤمن إيمانا و صار يعاين المعجزة القرآنية، كما عاينها العرب الأوائل تماما و لكن بلغة العلم لا بأساليب البلاغة و البيان، لأن غاية هذه المعجزة هو الدلالة على أن القرآن كلام اللّه لا من كلام البشر مما يصدق نبوة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و رسالة الإسلام. و لا يدرى المؤلف إلى أى مدى سيصل الإنسان فى المستقبل من حيث العلوم و المكتشفات، و لكنه يؤكد أنه «۱» «على يقين بأنه كلما تقدمت به العلوم سيضع يده على معجزة جديدة فى كتاب اللّه، كان فى غفلة تامة عنها، ليعيش الإنسان، فى كل زمان و مكان، مع المعجزة القرآنية آية بينة لا لبس فيها و لا غموض»، و هو يرى، فى هذا الإعجاز، لكل إنسان و فى كل زمان و مكان معنى قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، و إنما كان الذى أوتيته و حيا أوحاه اللّه إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة). لقد أكد المؤلف، منذ البداية، على سلامة منطلقه الفكرى لهذا العمل، من خلال ربطه بين شمولية الرسالة و ختم النبوة و ضرورة وجود المعجزة المصدّقة لهما_____،

(۱) المعجزة القرآنية- د. محمّد محسن هيتو، ص ۱۰. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۴۷ و استمرارية هذه المعجزة عبر كل زمان و مكان، و إلا فإن الرسالة ليست شاملة لكل الناس حتى يوم القيامة، و أن النبوة يجب أن تستمر ما دام هناك أجيال ليس للّه عليهم حجة بدون رسول أو نبى ذى معجزة قاهرة لما تعارفوا عليه، و كانت سلامة منطلقه الفكرى أيضا حينما اعتبر التحدّى المعرفى المعاصر الذى أسس الملحدون دعوتهم عليه لصرف النظر عن الإيمان و الدين، يجب أن يجابه بمعجزة تناسب هذا العصر من معرفة و علوم و مكتشفات، حيث أن القرآن كتاب هداية و إرشاد، و ليس كتاب علم، و لكن بإعجازه جاء لكل العلوم و المعارف بنفس

لغاتها و من خلالها، ليصل إلى الإيمان و الدين الحق. و قبل أن يمارس المؤلف تفسيراته العلمية أو ظواهر الإعجاز العلمى القرآنى حدّد منهجه الصحيح لذلك العمل فوصفه بأنه منهج «۱» «دون غلو تحمل به آيات القرآن ما لا تحمله من المعانى و الاحتمالات، أو تفريط تعرض به عن كثير من الحقائق الكونية و العملية التى لا يجوز الإعراض عنها لجمود التفكير أو قصور فى العلم و المعرفة». إذن، فالمؤلف بدأ بمقدمة سليمة، علميا و شرعيا، و استخدم منهجا لا تفريط فيه و لا إفراط، لا يخلو من الحماسة للعلوم و لا تقصير عن الحقيقة العلمية أن تلحق بالحقيقة القرآنية، و كل هذا من شروط و ضوابط التفسير العلمى المطلوب. بعد ذلك ينتقل المؤلف للحديث عن الملاءمة و المناسبة بين الإعجاز العلمى و طابع المثقفين، عربا و أجانب، المخاطبين بهذا الموضوع «۲» «كما نجد المثقفين أكثر تمايلا و طربا عند ما نعرض عليهم وجها من وجوه الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم، لا سيما إذا كان هذا الوجه قطعى الدلالة، بيّنا ظاهرا لا يحتاج إلى الاستنباط و الاستنتاج، و ذلك لأن هذا الوجه ملائم للثقافة التى يحملها أبناء العصر الحاضر، و التى أصبحت قاسما مشتركا بينهم جميعا، و إذا كان هذا شأن مجتمعنا العربى، فمن باب أولى أن يكون هذا شأن غيره من المجتمعات». بل إن المؤلف يجد أنه لما كان القرآن نفسه يحث الناس على النظر فى ملكوت السماوات و الأرض و مجال الكون و النفس، و يضرب للناس الأمثال ليلفت نظرهم إلى عظمة الخالق من خلال عظمة المخلوق، لذا فإنه يرى واجبا علينا أن نبحث كل علم يكشف عن سر من أسرار القرآن و يثبت إعجازه، كما أنه يصل إلى التأكيد على اعتقاده بأن «۳» «هذا الوجه من وجوه الإعجاز هو أبلغ هذه الوجوه، إذ يستطيع (_____ ۱) المعجزة القرآنية- د. محمّد حسن هيتو، ص ۱۴۷. (۲) المصدر السابق، ص ۱۴۸. (۳) المصدر السابق، ص ۱۴۹. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۴۸ الإنسان، فى كل عصر من العصور، أن يجد بغيته فى كتاب اللّه من الإيمان بأن هذا الكلام ليس من كلام البشر و إنما هو من كلام اللّه، فكلما تقدمت العلوم الإنسانية كشفت لنا عن سر جديد لم نكن قد اطلعنا عليه من قبل، و هذا وحده كاف ليدل على أن القرآن ليس من صنع البشر، إذ يستحيل على البشر، و لو كانوا على قلب رجل واحد، و بتفكير رجل واحد، أن يوجدوا مثل هذا الكتاب الذى لم تتخلف آية واحدة من آياته على توالى الأيام و كدّ السنين و الأعوام». إن المؤلف يدرك حقيقة أن القرآن لم ينزل على أنه كتاب جيولوجيا أو فلك أو غيرهما من العلوم، و إنما هو كتاب هداية و إرشاد للبشرية الحائرة و دستور أو نظام حياة للإنسانية «۱» «يجب علينا أن لا ننسى الوظيفة الأساسية التى جاء من أجلها، ألا و هى هداية البشر و رسم المنهاج القويم، فلا يجوز لنا بعد أن ننحرف عن الوظيفة الأساسية لكتاب اللّه، و تحميل الآيات ما لا تطيق من المعانى العلمية التى لم تسق الآية من أجلها و لا نزلت لبيانها، و إنما هى من أوهام القارئ، و ربما انقلبت إلى ضرب من التأويل الباطنى الباطل، كما لا يجوز لنا، فى نفس الوقت، أن نجمد على معارفنا القديمة الضيقة و تفسيراتنا الجزئية المحدودة المبنية على تلك المعلومات القديمة ..... مما يؤدى فى النتيجة إلى فهم القرآن فهما غير سليم فى ضوء المعارف الحديثة، و فى الآيات التى لها مساس بالعلوم». لذا، يعرض المؤلف الفئات الثلاث التى انقسم عليها الناس فى هذا المجال، فئة المحافظين المعارضين للتفسير العلمى، و فئة مبالغة فى هذا التفسير العلمى حتى تفسر الآيات على قبول المفاهيم العلمية، و فئة وسطى بين هذا الإفراط و ذاك التفريط، و هو يرد على الفئة الأولى المعارضة للعلوم بقوله «۲»: «إننا، نحن المسلمين، مدعوون فى كل زمان و مكان و بنص الشرع إلى الاستفادة من كل حقيقة علمية، لأن ديننا، دين العلم و المعرفة، لم و لن يتعارض فى يوم من الأيام مع حقائق العلم فى الكون و الحياة»، و يعتبر موقفها تفريطا فى حق القرآن و إعراضا عن الفهم الحقيقى للآيات المتعلقة بالكون و الحياة، و قد تقود لإيجاد فجوة بين الدين و العلم مما قد يؤدى إلى ما لا تحمد عقابه، كما حدث للكنيسة. كما يرد على الفئة الثانية، فى غلوها و مبالغاتها، بأنها تحمل آيات القرآن- بمناسبة و غير مناسبة- على المكتشفات أو القوانين العلمية الحديثة، مما جعلها (_____ ۱) المعجزة القرآنية- د. محمّد حسن هيتو، ص ۱۵۰. (۲) المصدر السابق، ص ۱۵۲. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۴۹ تخرج بالآيات القرآنية عن معانيها اللغوية و مدلولاتها الشرعية، و هى التى وصفها بالبعث كما قدمنا. أما الفئة الثالثة، فئة التوسط بين جانبى الإفراط و التفريط، فهى لم

تتجمد جمود الفئة الأولى، و لم تتهور تهور الفئة الثانية، و هذه الفئة قامت بما يلى: ۱) أخذت الآيات التى لها مساس بالعلوم و فهمتها بناء على ضوء المعارف الحديثة اليقينية لا الظنية، و فى نطاق قوانين الشرع العامة و قواعد اللغة الثابتة، فرأت فيها كل ما يدل كل ذى عقل على أن هذا القرآن ليس من عند البشر و إنما من عند اللّه. ۲) وقفت عند ظاهرة النص القرآنى إذا كانت دلالته قطعية، و إن كان يتعارض مع بعض النظريات العلمية الرائجة، جازمة بأن الخطأ فى النظرية العلمية، و أن على أصحابها أن يبحثوا عن وجه الصواب فى موضوعها مستندة على أن العلم لا يتناقض مع الدين، أو القرآن مع القوانين اليقينية الثابتة. هكذا، يعرض الدكتور محمد حسن هيتو منهجه فى الإعجاز القرآنى فى كتابه «المعجزة القرآنية»، متسلّحا بكل الضوابط التى وضعها العلماء، فكان كتابه خير نموذج للتفسير العلمى للقرآن، حيث فسّر فيه اثنى و عشرين آية قرآنية بضوء مفردات العلم الحديث، كما أنه رد على مفهوم الإعجاز العددى فى القرآن، كما ورد عن رشاد خليفة، و ربطه بالتفسير الباطنى اليهودى، فهو يرفض أن يضع فى القرآن ما ليس فيه بحجة التفسير العلمى، كما فعل رشاد خليفة. إن كتاب «المعجزة القرآنية» هو خير نموذج للتفسير العلمى للقرآن، مبدأ و منهجا و تطبيقا، و بمقدار ما نقرأ فيه من علوم و معارف نجد فيه وظيفة القرآن فى الدعوة و الإرشاد و الهداية متحققة، فلا نضيع وسط معلومات عن أنظمة الخلق و المخلوقات و ننسى رب الخلق و رب المخلوقات و أنظمتها و قوانينها. و إذا ما أخذنا نموذجا تطبيقيا لمنهج الدكتور محمد حسن هيتو، فإننا سنرى مقدار وضوح الإعجاز العلمى فى الآيات القرآنية التى يختارها منه. ففى تفسيره العلمى للآية الثامنة عشرة، و التى وضعها تحت عنوان وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الذاريات/ ۴۹] و شعار (علماء الكون و الحياة فى قانون الزوجية اليقينى) يقول: «لقد تكرر ذكر الأزواج فى القرآن الكريم من أوله إلى آخره مرات كثيرة، و فى جوانب متعددة من جوانب الحياة، بل نصت بعض الآيات على أن كل شىء خلق فى هذا الكون خلق على قانون الزوجية، فقال تعالى وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [الحج/ ۵]، و قال تعالى الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۵۰ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ [الرعد/ ۳]، و قال أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ [الشعراء/ ۷]، و قال جل و علا وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الذاريات/ ۴۹]، و قال وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى [النجم/ ۴۵]، و قال وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ [الزخرف/ ۱۲]، ثم قال تعالى: سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ [يس/ ۳۶]، إلى آيات كثيرة فى القرآن الكريم، تتكلم عن الأزواج و عن خلقها، و أن هذه الأزواج موجودة فى جميع معالم الكون و الحياة وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. إذن، فالزوجية لا بد أن تكون موجودة فى كل شىء يمكن للإنسان أن يضع يده عليه، و ليست مقصورة على ما يكون من الذكر و الأنثى فى النبات و الحيوان، أو على ما يمكن أن يتصف بالذكورة و الأنوثة و لو مجازا، لأن الصيغة التى وردت من أبلغ صيغ العموم و أكملها وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. و حينما يستعرض الدكتور هيتو رأى علماء السلف و أقوالهم فى الزوجين يقول بأن فهمهم لهذه الآية كان ضمن طاقاتهم و إمكانياتهم و معارفهم، فيما وضعوا عليه أيديهم من معالم الكون و الحياة، حيث فسرها الطبرى، عن مجاهد، بأنها بمعنى الكفر و الإيمان و الشقاوة و السعادة و الهدى و الضلالة و الليل و النهار و السماء و الأرض و الإنس و الجن، و روى عن الحسن البصرى أنه قال فى هذه الآية: الزوجان هما الشمس و القمر، و روى عن ابن زيد أنه قال فيهما هما الذكر و الأنثى ... ثم قال الطبرى: و أولى الأقوال فى ذلك قول مجاهد، و هو أن اللّه تبارك و تعالى خلق لكل ما خلق من خلقه ثانيا له مخالفا فى معناه، فكل واحد منهما زوج للآخر و لذلك قيل زوجين، و إنما نبّه جل ثناؤه خلقه على قدرته على خلق ما يشاء خلقه من شىء، و أنه ليس كالأشياء التى شأنها فعل نوع واحد دون خلافه، إذ كل ما صنعته فعل نوع واحد دون ما عداه، كالنار التى شأنها التسخين و لا تصلح للتبريد، و كالثلج الذى شأنه التبريد و لا يصلح للتسخين، فلا يجوز أن يوصف بالكمال و إنما كمال المدح للقادر على فعل كل ما يشاء من الأشياء المختلفة و المتفقة .... و لو أننا تتبعنا كتب المفسرين على اختلاف مناهجهم، من السلف و الخلف إلى عصر النهضة العلمية، لوجدناها متفقة تقريبا على هذا الذى قاله الإمام الطبرى رحمه اللّه تعالى، مع توسّع بعضهم فى تعداد الأنواع التى لها ضد أو نقيض أو

نـدّ، أو شـبیه، و اختصـار بعضـهم الآـخر و التقـائه بـذکر الـذکر و الأـنثی، و هـذا هـو الـذی کـانوا یشاهـدونه الأعجـاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۵۱ أو یعلمونه رضـی اللّه عنهم. و لکن هل هـذا الـذی ذکروه هو کل ما نسـتفیده من هذه الآیات التی تتحدث عن خلق الزوجین؟ الجواب و بکـل تأکیـد: لا، و هـذا الـذی یشـیر إلیه تعالی فی سورة یس سُـبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا یَعْلَمُونَ [یس/ ۳۶]. إذن، فلیس الأمر فی خلق الزوجین مقصورا علی ما کان معروفا للناس فی القدیم، و إنما هناک أشـیاء أخری خلقها اللّه زوجین زوجین مما لم یعرفه الإنسان القدیم، و کشفت عنه العلوم الحدیثة، بوسائلها العلمیة الدقیقة المذهلـة المعاصـرة، التی أعطت الإنسان من القـدرة علی الإدراک أضـعاف ما کان یملکه الإنسان القدیم آلاف المرات، من المجاهر الألکترونیة و المقاییس الدقیقة الحساسـیة، و سفن الفضاء و القوانین العلمیة. فلقد توصل العلماء فی العصر الحدیث إلی إدراک الکثیر و الکثیر من خلق الأزواج مما کان مجهولا فی الماضـی، و مما نفهم به معنی جدیـدا فی قوله تعالی وَ مِمَّا لا یَعْلَمُونَ بل لنفهم ما هـذه الآیة و ما فی معناها أنها یسـتحیل أن تکون من قول البشـر، و إنما هی من قول خالق الأرض و السـماء و عالم السّرّ و العلن، إذ أخبرت عن الزوجیـة فی أشـیاء لم یکن أهـل العصـر الأـول یعرفونهـا، و إنمـا هی من معارف هـذا العصـر، کما أخبرت الآیات التی معناها بأن الزوجیة فی کل شـیء یمکن للإنسان أن یضع یده علیه، فإن أدرک الزوجیة به فبها و نعمت، و إلا فسیدرکها الجیل و الأجیال القادمة بما یمکن أن یتوصـلوا إلیه من معارف و وسائل، و لـذلک فإنه یجب علیه أن یتابع البحث عنها. بعـد هـذا التقدیم، یقوم الدکتور هیتو بعقد فصول الزوجیة فی کل شـیء کما کشـفتها العلوم المعاصرة، فیعقد فصلا حول الزوجیة فی الإلکترون أو الکون و الکون النقیض، و فصـل حول الزوجیـة فی الخلیـة الجنسـیة، و فصل حول الزوجیـة فی الکروموسومات، و فصل حول الزوجیـة فی الکروموسومات فی الخلیـة الجنسـیة، و فصل حول الزوجیـة فی الجینات وراء الزوجیـة فی الکروموسومات، و فصل حول الزوجیة فی تکوین الجینة نفسـها وراء سـر مجیئها أزواجا، و فصل حول الزوجیة فی ترکیب أشـرطة الجینة وراء سر الزوجیة، و هو بهذا یجعل اکتشافات العلم فی جمیع هـذه المفردات العلمیـة تتحدث عن الزوجیة مصداقا لقول اللّه سـبحانه و تعالی فی الآیات المذکورة سابقا، بل یصل إلی حد أن العلم بعـد هـذه الاکتشافـات للزوجیـة فی کل شـیء، بـدأ یبنی کل افتراضاته، حتی النظریـة، علی هـذا الأساس، و من ثم یأتی العلم بتجاربه مؤکدا لهذه الافتراضات و مصدقا. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۵۲

الزوجیة فی الإلکترون، أو الکون و الکون النقیض

الزوجیـة فی الإـلکترون، أو الکون و الکون النقیض إن الإنسان، أو أی کائن حی آخر، یتکون من أعضاء، و هـذه الأعضاء تتکون من أنسـجة، و الأنسـجة تتکون من خلایا، و الخلایا تتکون من جزئیات، و الجزئیات تتکون من ذرات، و الـذرات تتکون من جسـیمات، و هـذه الجسـمیات تعتبر أصـغر وحـدة من وحـدات المـادة. فجسـیمات الـذرة الأولیـة هی: البروتون و النیوترون و الإـلکترون، أو بمعنی الموجب و المتعادل و السالب، و لقد کنا نسـمع من أساتذتنا أن اللّه خلق من کل شیء زوجین، حتی الذرة خلقها اللّه من زوجین هما النواة و الإلکترون الذی یدور حولها، أو هما السالب و الموجب فیهما، إلا أن هذه المعارف أصبحت بدیهیة و بدائیة، و لیست هی مما أریـد الکلام عنه، و إنما هو أمر وراء الـذرة، إنه أمر تکوین جسـیماتها، فی أصل خلقه الأول، لنضع أیـدینا علی سـر جدید من أسـرار الإعجـاز الإـلهی فی خلقه و آیـاته. فی عام ۱۹۲۸ خرج العـالم الریاضـی الشـاب بول دیراک، الإـنجلیزی، خرج علی الملأ- بنبإ غریب مضمونه معادلة ریاضیة أصلیة تتناول طبیعة الکون. تنبأت هذه المعادلة بأن خلق الإلکترون لن یتأتی إلا عن طریق خلق الزوجین، و هو ما یعرف، بالأوساط العلمیـة الفیزیائیة، بهذا المعنی أیضا (noitaercorP)، أی خلق الأزواج أو الزوجین. و لم یکن المراد بهـذا أن الخلق یکون عن طریق إعطـاء إلکترونین أو بروتونین أو نیوترونین، و إنمـا کـان بمعنی خلق الإـلکترون و الإلکترون النقیض، علما أن هذه النقائض المادیة لا یمکن أن یجتمع بعضـها لا فی الزمان و لا فی المکان. فبمجرد خلق الزوجین فی عالمنا لا بد أن یهلک أحدها الآخر و یفنیه حین التقائه إیاه، هذه هی المعادلة التی أتی بها بول دیراک، و التی تحمل هذا النبأ الغریب، مما جعل الناس لا یلقون لها

بالا، إذ لم تكن عقولهم تهيأت لهذا بعد. و لكن هل تحقق ما تنبأ به ديراك؟ لقد كان العلماء فی الماضی يطلقون إلی الجو أجهزة علمية داخل بالونات لتسجيل سر الأشعة الكونية التی تأتی من السماء، و فی عام ۱۹۲۳ استقبل أحد العلماء الأمريكيين، المهتمين بدراسة الأشعة الكونية، و هو كارل أندرسون، استقبل مسارات هذه الأشعة علی ألواح حساسة، و هذه المسارات بمثابة البصمات عند الإنسان، تحدد للعلماء صفات تلك الأشعة و طبيعتها و شحنتها و شخصيتها. لقد لفت نظره من بين المسارات الكثيرة المسجلة مسيرة غريبة، ففی لحظة واحدة خاطفة ظهر علی لوحه الحساس ولادة جسمين من نقطة واحدة، انطلق أحدهما إلی الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۵۳ جهة اليمين و انطلق الآخر إلی جهة اليسار، مما جعل أندرسون حائرا فی هذا المشهد، إذ أن المسارين لألكترونين يقينا، و لكن ما هو السبب الذی جعلهما يبتعدان و يفترقان أحدهما عن الآخر و كأن أحدهما عدو لقرينه؟ لم يتمكن أندرسون من معرفة السبب، و ذلك لأنه لم يكن قد اطلع، وقت مشاهدته لهذه الظاهرة، علی معادلة ديراك الرياضية التی أشرنا إليها، و التی كان قد نشرها قبل ثلاث سنوات فی إحدی المجلات العلمية البريطانية، إذ لو كان قد اطلع عليها لما تحيّر تلك الحيرة فيما رأی و شاهد. و جاء بعد أندرسون الأمريكی عالمان بريطانيان عرفا ما توصل إليه أندرسون عمليا بألواحه الحساسة، كما عرفا المعادلة التی أشار إليها ديراك قبله نظريا، و بجمعهما، بين نتيجة أندرسون العملية و معادلة ديراك الرياضية النظرية، أدركا السر العظيم فی مسار الإلكترونين، و أشارا إلی أن معادلة ديراك التی تنبأت بخلق الزوجين صحيحة تماما، علی ما أثبته أندرسون بألواحه. لقد كان ذلك اليوم الذی توصل فيه العلماء إلی تسجيل بداية خلق أصغر و أبسط زوجين فی العالم، كان يوما مشهودا فی تاريخ العلم. و من أجل هذا الاكتشاف المثير الذی توصل إليه ديراك، من خلال معادلته العلمية الرياضية، حصل علی جائزة نوبل فی العام التالی لتحقق ما تنبأت به معادلته، و هو بالنسبة لنا نحن المسلمين يعتبر يوما مشهودا، إذ أثبت فيه العلم الحديث، فی أدق مباحثه و أبدع اكتشافاته، ما أخبر به القرآن الذی سبقت آياته معادلة ديراك بأربعة عشر قرنا، إذ قال تعالی وَ مِنْ كُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الذاريات/ ۴۹]، و قال سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ [يس/ ۳۶]. نعم، ... إنه ليوم مشهود لنا نحن المسلمين، إذ ثبت للعالم أجمع أن هذا القرآن لم يكن من صنع البشر، و إنما هو الآية القاطعة الناطقة بأنه من صنع خالق الكون و الإنسان و الحياة، و العالم بكل صغيرة و كبيرة مما خلق علی أبدع نظام و أتم تقدير، و هل هذا كل ما فی الأمر بالنسبة للأزواج؟ .. الجواب، لا. لم يقف الأمر عند هذا الحد الذی ذكرناه، و ذلك لأنه وضع أيدينا علی سر جديد و هو أن هذا الكون، فی أرضه و سمائه و جزئياته و ذراته، ليس فی الحقيقة إلا طاقة اتخذت صورة المادة بجسيماتها و ذراتها، و أن هذه الجسيمات حينما تجسدت تجسّدت علی شكل زوجين و لم تتشكل مفردة. فمولد أو خلق الزوجين اللذين ظهرا علی لوح أندرسون لم يظهرا من عدم، بل كان من وراء تخليقهما طاقة، أو ومضة ضوئية، و هذه الومضة تنطلق علی هيئة موجة، و تجری فی الكون بسرعة الضوء، ۱۸۶ ألف ميل فی الثانية، الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۵۴ و الواقع أن هذا الكون- علی قدر ما نعرفه الآن- له مظهران، فهو أحيانا ندركه أو يظهر لنا علی شكل موجة، و هذه الموجة لا زمان لها و لا مكان، أی فی المقاييس الرياضية الحسية، و أحيانا أخری قد تتخلی الموجة أو الطاقة عن صفتها الطليقة المتحررة، و تتجسّد علی هيئة مادة كجسيمات ذرية، و هی فی هذه الحالة تأتی علی قانون اللّه الأزلی فی الخلق زوجين زوجين .. و فی المفاعلات النووية الجبارة يعيش العلماء مع خلق الأزواج ليل نهار، و فيها يسجلون تجسيد الطاقات أو الموجات علی هيئة جسيمات كثيرة و علی الألواح الحساسة، أو فی غرف الغيوم التی توضح بداية خلق الأزواج، يسجل العلماء مولد الإلكترون و نقيضه أو البروتون و نقيضه أو النيوترون و نقيضه، ثم إن هناك جسيمات ذرية أخری كثيرة، و هی غير الجسيمات الأساسية الأولية الثلاثة، التی ذكرناها، فما من جسيم منها يتجسّد- صغر شأنه أو كبر- إلا و يظهر معه فی نفس اللحظة نقيضه، ثم إنه فی كل حالة من هذه الحالات يظهر الزوجان و يتخلقان أمام أعين العلماء، لكن الشیء المثير هو أن النقيض لا يمكن أن يعيش فی مكان واحد مع نقيضه. فإذا تقابل إلكترون مع إلكترون نقيض، فلا بد أن يزولا و يتخلّيا عن تجسّدهما المادی و يعودا إلی سيرتهما الأولی، أی إلی موجات متحررة. و الشیء الذی يعتبر أكثر إثارة و دهشة أن لكل شیء فی هذا الكون نقيضا ما عدا شيئا

واحدا ألا و هو الطاقة أو الموجة المتحررة أو النور، فلا نقيض له، و إنما تظهر النقائض فقط عند ما تتجسّد هذه الموجة أو هذا النور أو تلك الطاقة، و يؤدى إلى خلق الزوجين. لما ذا و كيف؟ لا أحد يدرى. فطبيعة الكون تضع أمامنا حقائق الوجود بصورة مثيرة، فبداية الخلق أزواج، و الأزواج جسيمات أو هى تجسيد لطاقة أو ومضة أو نور، خذ منها ما تشاء، فلا أحد يستطيع هنا أن يؤكد أمرا أو يحدّد شيئا، كما يقول الدكتور عبد الحسن صالح فى بحثه عن الأزواج، و كلما تعمّقنا فى طبائع الأشياء، و ظننا أنا قد وصلنا فيها إلى قرار أشاحت الحقيقة بوجهها و تجلّت لنا أكثر إثارة و وضعتنا فى مآزق فكرية جديدة ... إن الذى نعرفه حقا أن المادة تجسيد لطاقة أو قوّة، و هذه الطاقة وراء حدود العقل و الخيال، و أن هذه الطاقة المتجسّدة تتجسّد أمام أعيننا أزواجا أزواجا، و لكن ما ذا يعنى هذا ...؟ إنه يعنى، و بكل ثقة، ما أخبر اللّه عنه قبل قرون طويلة مما يدلّ على عظمته و علمه و قدرته، و مما يدلّنا دلالة قاطعة على أن هذا القرآن كلامه و وحيه، إنه يعنى قوله تعالى: وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الذاريات/ ۴۹]، كما الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۵۵ يعنى قوله سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ [يس/ ۳۶]. و لكن هل هذا كل ما فى الأمر؟ .... و هل اقتصرت المكتشفات العلمية على اكتشاف الزوجين فى الجسيمات الذريّة من الإلكترون و نقيضه أو البروتون و نقيضه أو النيوترون و نقيضه، أم أنهم وضعوا أيديهم على أمور أخرى ربما كانت أكثر إثارة و دهشة فى هذا الكون ....؟ لا شك أن ما ذكرناه لم يكن كل ما فى الأمر مما يتعلّق بالآية، فقد قال تعالى وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ. إذن، فلا بد أن تكون هناك أمور أخرى عرفها الإنسان المعاصر مما لم يكن يعلمه الناس قديما، و فيه الإثارة و الدهشة مما يذهل عقل الإنسان، و مما يدل دلالة قاطعة على إعجاز القرآن.

الكون و الكون النقيض

الكون و الكون النقيض لقد سيطرت فكرة الخلق أزواجا، بعد معادلة ديراك و ألواح أندرسون و تجارب العلماء فى المعامل الذريّة الضخمة، لقد سيطرت فكرة الخلق أزواجا على عقول العلماء، و صار من البديهية اليقينية عندهم أنه من تمام انتظام الكون و تعادله و توازنه أن يكون الخلق فى كل شىء على طريقة الأزواج، و كأنهم اتخذوا من قوله تعالى وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، كأنهم اتخذوا من هذه الآية دستورا لمباحثهم العلمية، فكل شىء فى هذا الكون يجب أن يكون على نظام الزوجية، فخلق الإلكترون لا بد أن يصحبه خلق الإلكترون النقيض، أو البوزيترون، كما بيناه فى الفقرة السابقة، و خلق النيوترون لا بد أن يصاحبه خلق النيوترون النقيض .... هكذا ... و لكن صفات الإلكترون تخالف و تناقض تماما صفات البوزيترون أو الإلكترون النقيض، فإذا دار الإلكترون حول نفسه من اليمين إلى اليسار دار الإلكترون النقيض من اليسار إلى اليمين، و إذا حمل الإلكترون شحنة كهربائية سالبة حمل البوزيترون شحنة موجبة، و إذا كان المجال المغناطيسى للألكترون يتّجه إلى الأعلى، كان المجال لنقيضه يتجه إلى الأسفل، من أجل هذا كان من المستحيل أن يجتمعا، فإذا ما قدّر اجتماعهما كان لا بد أن يفنى أحدهما الآخر، و هذا الصراع العنيف الذى يؤدى إلى الفناء يشهده العلماء فى معاملهم و فى طبقات الجو العليا و فى الفضاء الخارجى، إذ كثيرا ما تتجسّد الطاقة، و عند ذلك تظهر الجسيمات الذرية أزواجا، فأما الذى فى عالمنا فيبقى، و أما الذى جاء نقيضا لجسيمات عالمنا فلا بد أن يتخلّى عن تجسّده و يفنى، و يعود ومضة سائحة فى هذا الكون الرهيب. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۵۶ و بهذه الحقائق اليقينية، التى وضع العلماء أيديهم عليها و آمنوا بها، أصبحوا يتساءلون: ما دام الأمر كذلك، فهل يمكن أن يكون هناك ذرة و ذرة نقيض لها، أو مادة و مادة نقيض لها، أو كون و كون نقيض له، إذ لا بد لكل شىء أن يكون زوجين ...؟ ... و بمواصلة البحث توصل العلماء إلى تخليق ذرة هيدروجين نقيضة، إلا أن تخليقها لم يدم لأكثر من لحظة واحدة خاطفة، إذ جاء كل ما فيها معاكسا لذرة الهيدروجين المعروفة، و لا يمكن أن تعيش إلا فى عالم آخر غير عالمنا، و هذا الأمر مستحيل فى عالمنا، إذ لا بد لها أن تصطدم فى لحظة خاطفة، بجزئى من جزئيات الهواء، أو أى شىء فيه نقيضها لتحطمه و يحطمها، و تعود إلى طاقة سابحة فى هذا الكون. بعد هذه التجربة و هذا الاكتشاف

تطورت معارف العلماء و أصبحوا يوقنون أن فكرة خلق الأزواج ليست قاصرة على الجسيمات الذرية، بل تعدّتها إلى أنه لكل ذرة فى هذا الكون ذرة نقيضة لها، و هذا يعنى أن خلق الأزواج لا بد أن يمتدّ إلى جزئيات الخلية، بل إلى الكون بأسره من الأرض و النجوم و الكواكب و المجرات، إذ لا بـد لها أن تكون أزواجا ما تَرى فِى خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ [الملك/ ۳]. و هذا يعنى أيضا أن بناء الكون النقيض فى ذراته لاـ بـد أن يكون معكوسـا أو نقيضـا لبناء عالمنا الـذرّى، بما فيه من شـموس و أقمار و كواكب، و نحن لا يمكننا أن ندرك هذا، و لا يمكننا أن نفرّق مثلا بين النجم و نقيضه لأننا نراهما بواسطة الضوء الواصل إلينا منهما، و قد ذكرنا أن النور لا نقيض له، و إنمـا يظهر الزوج أو الجسم و نقيضه عنـد تجسّـد النور أو الطاقـة، و لكننـا يمكننـا أن نـدرك النجم و نقيضه مثلا عنـد ما يقترب أحـدهما من الآـخر و يتلاحمان، و يبـدأ كل منهما بإفناء الآخر و تحويله إلى موجات ضوئيـة لا قبل للعقل بتصورها، بل لا قبل للخيال بـذلك، و ذلك، كما يقول العلماء، لو تقابل مثلا إنسان من عالمنا مع إنسان من العالم النقيض سيتحولان فى لحظـة خاطفة إلى طاقة ناتجـة عن انفجار كونى جبار لا يقل عن الطاقة المتحررة من تفجير مائة ألف قنبلة من القنابل الهيدروجينية، فكيف لو تقابل نجمان أو مجرتان ... إنه لا يمكن للعقل أن يتصوّر ما ذا سيحدث. و من أجل هـذا كان هذا التباعد الهائل فى الفضاء بين المجرّات و عوالم هذا الكون الرهيب الرحيب، فالمسافـة بين المجرات لاـ تقـاس بالأميال و لا بملايين الأميال و إنما بملايين السـنين الضوئيـة. إن الـذى دفع العلمـاء إلى هـذا التفكير المثير فى خلق الكون و الكون النقيض إنمـا هو الواقع الـذى رأوه فى تجسـيد الإـلكترون الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۵۷ و الإـلكترون النقيض، و مـا قـاموا به من تخليق ذرة الهيـدروجين النقيضـة، و ما إلى ذلك مما ذكرنا، مع ما أصـبح يقينا عندهم من الوحدة فى الخلق على كل المسـتويات، و التى تسـتلزم وجود المادة و المادة النقيضة، أو بعبارة أخرى أوضـح فى موضوعنا ألا و هى أنها تستلزم وجود الخلق أزواجا. لقد عكف العالم السويدى الشهير (أوسكار كلاين) سنوات طويلة على دراسة هـذا الموضوع و خرج برأى يقول: «إن المـادة و المـادة النقيضـة لا بـد أن تكونا قـد ظهرتا فى وقت واحـد، و لا بـد أن تتساويا تماما، بمعنى أن نصف الأـجرام السـماوية قـد جـاء و ظهر من مـادة عاديـة و نصـفها الآخر قـد خلق من مادة نقيضـة» .. و ذهب عالم البلازما النووية «هانز ألفين» إلى أبعد من هذا، فنشـر بحثا بعنوان «نقيض المادة و الكون» شرح فيه فكرة ظهور الكون و الكون النقيض و كيف ظهرا، ثم بوعـد بينهما و عزلا حتى أمكن أن يعيشا إلى اليوم المعلوم». و لا يسـعنا، نحن الناظرين إلى هذه النتائج العلمية التى لا تحتاج إلى تعليق، إلا أن نردد قوله تعالى سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ [يس/ ۳۶]، كما أننا لنتمايـل طربـا و نهتز نشوة عنـد ما نعرف أن العالم الحـديث، بعلومه و معارفه و فى أدق مباحثه و نظرياته، قـد اتخـذ من آيات القرآن دسـتورا لـه يبنى عليه حضـارته و تطلعـاته و طموحـاته، و يردد كمـا يردد كـل مـؤمن وَ مِنْ كُـلِّ شَـىْءٍ خَلَقْنـا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ [الذاريات/ ۴۹]. أيهـا القـارئ الكريم: قـل لى بربك ... من الـذى علّم ذلك الأمّى فى شـعاب مكـة و أوديتها، من الـذى علمه أسـرار الكون و الحياة و الـذرة و الخليـة مما لم يكن الإنسان يعلمه لا بعقله الظاهر و لا بعقله الباطن، و مما لم يصل إليه و لا حام حوله ...؟ لا شك أنه اللّه، الـذى خلق فسوى و الذى قدر فهدى، و إنى لعلى يقين بأنه ما من منصف يقع نظره على هذه الآية و هذه النتائج العلمية المذهلـة إلاـ و يجـد نفسه مضـطرا لأـن يحنى رأسه تواضـعا للحقيقـة، و تعظيما للخالق و اعترافا بأن هـذا الكتاب المعجز ليس من قول البشـر. بعـد أن ينتهى الـدكتور هيتو من البرهنـة، فى علم الـذرة و الفضـاء و الفلك، على وجود الزوجيـة فى كل تركيباتها، و وجودها المادى، يعود للبرهنـة على الزوجيـة فى علم الحياة، و سـنحاول اختصار ما قاله فى هـذا الصـدد، حيث يـدلل على الإعجاز القرآنى فى حـديثه عـن الزوجيـة مـن خلال الخليـة الحيـة، و من خلال الزوجيـة فى الخليـة الجنسـية، و من ثم فى الكروموسومـات، و من ثم فى الجينات، و من ثم فى الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۵۸ أشرطة الجينة الداخلية نفسها حتى يصل إلى أن كل الوجود، سواء كان ذرة ماديـة أو خليـة حيـة أو كونا كاملا أو جسـما كاملا، إنما يقوم على أساس الزوجية فى كل بنيانه. ففى حديثه عن الزوجية فى الخليـة الجنسـية كنموذج للخلية الحية عموما، يجد الدكتور هيتو أن العلم الحديث قد توصل ليس إلى الزوجية فى وجود الكائن الحى من خلال نطفـة الـذكر و بويضـة الأنثى، كما هو معلوم فى الظاهر فقط، و إنما وصل العلم إلى أن فى كل نطفـة للـذكر زوجين أيضا،

ففيها نطفة ذكرية و أنثوية بنفس الوقت، فنطفة الرجل فيها الذكر و الأنثى، و حينما تلقح البويضة لدى المرأة فإن كانت الملقّحة صفات ذكرية جاء الولد الذكر منها، و إن كانت الملقحة صفات أنثوية كانت الأنثى منها، و يؤكد هذا بالآية القرآنية أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (۳۶) أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى (۳۷) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (۳۸) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى [القيامة/ ۳۶- ۳۹]، أى فجعل من نطفة الرجل الذكر و الأنثى، و تفسره الآية الأخرى وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى (۴۵) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى [النجم/ ۴۵، ۴۶]. فالآية صريحة فى أن الذكر و الأنثى من نطفة الرجل و منيه، و أن هذا المنى يحمل الذكور إلى جانب الإناث أزواجا أزواجا. أما الزوجية فى الكروموسومات فيتحدث عنها العلم، كما يذكر الدكتور هيتو، من خلال عدد هذه الكروموسومات التى جميعها زوجيا، فهى فى خلية الإنسان فى نواتها ستة و أربعين كروموسوما، و فى البقر ستون كروموسوما، و هكذا نجد أن نوع الكائن الحى يختلف باختلاف عدد الكروموسومات فيه. و لما كانت هذه الكروموسومات دائمة الانقسام بسبب انقسام الخلية لتعويض الجسم عن الخلايا التى تموت باستمرار، و التى تقدر بالملايين، فإن انقسامها نفسه يحمل نفس الزوجية فى الكروموسومات الأصلية، و أى تغير فى عدد الكروموسومات يعنى تغير جنس الحيوان، و حينما تنقسم هذه الكروموسومات إلى أزواجها فإن كل زوج يعطى منها زوجا آخر شبيها له مائة بالمائة استعدادا للانقسام و التكاثر، فيصير فى الخلية ستة و أربعون زوجا، ليعود العدد بعد الانقسام إلى ثلاثة و عشرين زوجا، و لتستمر مسيرة الحياة و يستمر الحفاظ على الأنواع سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ [يس/ ۳۶]. و لكن هل هذا هو كل ما فى الأمر من أسرار الأزواج؟ كلا، فحتى حينما تنقسم الخلية الجنسية إلى ثلاثة و عشرين زوجا، لتكون بعد التلقيح مع بويضة المرأة المنقسمة أيضا إلى ثلاثة و عشرين زوجا، ليعود العدد إلى ستة و أربعين زوجا لتكوين الإنسان ذاته، فالخلية الجنسية فى الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۵۹ انقسامها إلى نصف العدد الزوجى فى كل من النطفة و البويضة إنما هى أعظم دليل على الزوجية حتى فى عملية التلقيح الجنسية. و يقول الدكتور هيتو: «و لكن أين سر الأزواج فى هذا؟ ألسنا نتكلم عن الأزواج؟ بلى .. إننا نتكلم عن الأزواج، و السر هنا يكمن فى أن الحيوان المنوى الذى يحمل، كما ذكرنا، نصف عدد الأزواج التى كانت تحملها الخلية الجنسية من الكروموسومات، إن هذا الحيوان عند ما يلقح البويضة فى رحم المرأة، و تتكون الخلية الأولى، نجد أن كل كروموسوم من الكروموسومات الثلاثة و العشرين تندفع فى هذه الخلية الجديدة و كأنها تبحث عن شىء مفقود، و إذا بكل واحد منها يبحث عن زوجه و قرينه الذى انفصل عنه فى الخلية الأساسية، فإذا ما التقيا تلاصقا، كما يتم التلاصق بين كل زوجين فى حياتنا الظاهرة، و كأن أحدهما يدلى للآخر بأسراره و يطلعه على باطنه و يتبادل معه المعلومات السرية التى لا يعلمها إلا خالقه، و التى سيتكوّن منها المولود الجديد». على أن الزوجية فى العلم لم تقف عند حدود الزوجية فى عدد الكروموسومات، بل إن العلم، بعد بحث دقيق عميق فى هذه الكروموسومات، و بعد استخدام العلم مجاهر كبيرة للنظر إليها، وجدها تتكون من جينات صغيرة متراصّة يبلغ عددها على الكروموسوم الواحد عشرات الآلاف، و هى تقوم بمهمة حفظ السجلات الوراثية للإنسان. فبناء على هذه الجينات تتحدد صفات الإنسان و لونه و شكله و صوته و طبيعته و طوله و لون شعره و لون عينيه و كل ما يتعلق بأوصاف الإنسان، و بسبب هذه الجينات أيضا تنتقل الصفات الوراثية من الجد إلى الآباء، و من الآباء إلى الأبناء، و اكتشف العلم أن هذه الجينات تتكوّن، هى أيضا، من أزواج و لم تأت فرادى، و لهذا كان الشبه بين الولد و أبيه، و الأب وجده من جهة، و بين والدته وجدته من جهة أخرى، و حيثما تفوّقت جينة أحدهما على الآخر ظهر التعبير فى شبه الولد بأحدهما. إذن، حتى فى هذه الجينات وجدت الزوجية، فلو افترضنا جدلا أن الخلية تحتوى على أربعين ألفا من الجينات، فمعنى هذا أن عشرين ألفا منها جاءت من الأب، و العشرين ألف الأخرى جاءت من الأم، فهى تحمل عشرين ألف زوج من الجينات المشتركة التى تحمل صفات الأم و الأب معا. و لكن هل تقف الزوجية عند هذا الحد لمعرفتنا بالجينات؟ لا. فالعلم بدأ يبحث فى سر هذه الجينة و كيفية حفظها للصفات البشرية، بل و كيفية التأثير عليها، فما ذا وجد؟ وجد العلم أن الجينة الواحدة قد حملت سرا من الأسرار التى أدى اكتشافها إلى إثبات إعجاز القرآن و إظهار عظمة الخالق، إذ ثبت أنها تتكون من الأزواج أيضا، الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۶۰ و ذلك أن كل جينة من هذه

الجينات تعتبر معلومة مستقلة تعمل لتوريث الكائن الحى صفة محددة، و بعد التعمق فى تكوينها وجد أن هذه الجينة تتكون من شريط قد يفرد و قد يطوى، فإذا أريد من الشريط أن يقوم بمهمته و ينفذ خطته الوراثية المرسومة له انفرد و استقام، و هو لدقته لا يكاد يرى، إذ أن عرضه لا يزيد عن جزءين اثنين من مليون جزء من المليمتر، فإذا ما انتهى من عمله طوى نفسه و عاد إلى ما كان عليه على الكروموسوم كحبّة، أو عقدة صغيرة، لكن هذه الجينة لم تتكون من شريط واحد و إنما تبين، بالفحص و التدقيق، أنها على هيئة شريطين اثنين يلتفّ أحدهما على الآخر و يحتضنه كالضفائر المجدولة، و حتى هذه الضفائر كثيرا ما تأتى أزواجا على شكل زوجين اثنين، و يلتف كل زوجين منها بالزوجين الآخرين، على أنه قد تتكرر هذه العملية مرة ثالثة فى زوج ثالث ... و هكذا نرى أن هذا الأمر قد فاق التصوّر، و تجاوز حدود الخيال، و كأن كل شىء فى هذا الكون يقول سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ [يس/ ۳۶]. إن هذه الشرائط التى تتكون منها الجينة، و التى جاءت على شكل شريطين مجدولين، هى التى سجلت عليها الملايين و الملايين من الصفات السرية للكائن الحى، و كأنها كلمة السر فيه، و هى التى حيّرت المفكرين و العباقرة و علماء الحياة، فما هو سر هذه الشرائط التى سجلت عليها ملايين الصفات، و التى جاءت أزواجا، و ما هى حقيقتها، و هل هى أيضا احتوت على سر آخر من الأزواج فى تركيبها جاء وراء ظهورها أزواجا؟ .. الجواب نعم، و بكل تأكيد طبقا لقانون اللّه الأزلى وَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الذاريات/ ۴۹] ... و هنا يصل العلم إلى خاتمة المطاف الذى ما بعده مطاف ألا و هو الزوجية فى سر التركيب الأساسى لأشرطة الجين الزوجية، و هو التركيب الأولى لوجودها الحيوى. لقد تابع العلماء جهودهم فى البحث عن حقيقة الجينة و مكوناتها إلى أن جاء العالمان (جيمس واتسون)، المتخصص فى علم البيولوجيا، و (فرنسيس كريك)، المتخصص فى علم الفيزياء الكيميائية، و تمكّنا عام ۱۹۵۲ من اكتشاف حقيقة الأشرطة التى تتكوّن منها الجينة التى جاءت على شكل أزواج على شكل ضفائر مجدولة أو سلالم حلزونية ذات درجات متتابعة بعضها فوق بعض، و التى تحتوى على أسرار الحياة بالنسبة للكائن الحى، و بهذا الكشف وضعا أيديهما على أعظم سر من الأسرار التى تحمل صفات هذا الكائن الحى العجيب الغريب المعجز المذهل، و استحقا بناء على ذلك جائزة نوبل. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۶۱ لقد أثبت هذان العالمان أن هذه الأشرطة التى تحفظ أسرار الحياة و الصفات الخاصة للكائن الحى، أنها تتكون من عناصر الأرض، و ذلك لأن الإنسان خلق منها، فأثبت أن هذه الأشرطة تتكون من أربعة قواعد نتروجينية و هى: «أدنين، و جوانين و سايتوزين و ثايمين»، و لقد ذهل العلماء حينما رأوا أن هذه المركبات قد جاءت فى كل كائن حى أزواجا، فالأدنين دائما يتزاوج مع الثائمين، و الجوانين دائما يتزاوج مع السايتوزين، و لا يمكن أبدا أن يتزاوج الأدنين مع الجوانين، و لا الجوانين مع الثائمين، و لا السايتوزين مع الأدنين، و لا الأدنين مع السايتوزين، كما لا يمكن أبدا أن تختل هذه الأزواج فى أى كائن من الكائنات الحية و إلا كانت الكارثة الوراثية. و لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلى أن كل واحدة من هذه القواعد، الأربعة تتصل بسكر خاص اسمه (ريبوز)، و هذا السكر يتصل بجزئى من الفوسفات ليكوّن معه زوجا و لا يبتعد عنه و لا ينفصل منه، و بعد ذلك تتكرر هذه الأزواج فى جزيئاتها الوراثية ملايين المرات، و كل واحد منها يعرف مكانه من الخلية، كما يعرف زوجه و طبيعته و نوعه فيقترب منه و يرتبط به .. و إذا ما عرفنا أن الخلية الواحدة من جسم الإنسان تحتوى على ثمانية ملايين من هذه القواعد الأربعة، و كلما ولدت خلية جديدة أخذت معها هذا العدد من البلايين إلا فى الخلية الجنسية، إذ أن الحيوان المنوى يحمل نصف هذا العدد ليلتقى مع البويضة التى تحمل نصف العدد أيضا لتتكون الخلية الأولى، التى تحمل البلايين الثمانية، و بعد ذلك تبدأ الأزواج من هذه القواعد الأربعة بإصدار أوامرها لتتكوّن الجينة. إذا ما عرفنا هذا أدركنا سر الزوجية الذى تحدّث عنه القرآن فى كل شىء. و هكذا يصل الدكتور هيتو فى نهاية فصل الزوجية فى كل شىء هذا إلى القول «و لا يسعنا، فى نهاية المطاف فى عالم الأزواج فى الكون و الحياة، و الذى رأينا فيه من خلال مكتشفاتنا و علومنا الحديثة ما يدل دلالة قاطعة على إعجاز القرآن فى مضمار الأخبار عن أسرار الخلق فى أعمق أعماقه، مما كان من المستحيل معرفته على أهل العصر الذى نزل فيه القرآن، و مما لم يعرفه الإنسان إلا فى العصر الحديث، مما طوّره من الوسائل البصرية و توصل إليه من وسائل الكشف و المعرفة، لا

يسعنا إلا أن نردد قوله تعالى سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ» [يس/ ۳۶]. أما النموذج الثانى الذى نأخذه فى إطار التفسير العلمى للقرآن، فهو نموذج يختلف عن النموذج الأول، فهو لا يعتبر نفسه أنه يفسر القرآن علميا، و لكنه يشير إلى ما أسماه التوافقية بين آيات القرآن و حقائق العلوم المكتشفة حديثا، كما أنه، حين الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۶۲ يشير إلى آيات القرآن، يستخدم كلمة دقيقة رقيقة فى التعبير إلى إشارتها للعلوم و حقائقه، يستخدم كلمة (لمسة، و لمس) و يقول «۱» «بإمكانية التقاء الحقيقة العلمية بعد صدق نظرياتها و افتراضاتها و تجاربها مع حقيقة القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم هو كتاب الكون المفتوح». إنه لا يساوى بين النظرية العلمية و الحقيقة القرآنية، لأن النظرية قد تصدق و تكذب و قد تكذب نفسها غدا، فإذا ما سئل ما النقاط التى اقترب فيها العلم بنظرياته و حقائقه من الحقيقة القرآنية؟، كان الجواب «۲» «لا نقاط اقتراب بين حقيقة القرآن و نظريات العلم، لكن هناك اقتراب و لقاء و توافقية بين حقيقة القرآن و الحقيقة العلمية». هذا النموذج أقدم تأليفا و تاريخا من النموذج الأول حيث يعود إلى عام ۱۹۸۳، أما المعجزة القرآنية فقد صدر عام ۱۹۸۹، إنه كتاب «الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن» للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر ... إن هذا الكتاب، و على الرغم من كثرة المواضيع العلمية التى طرقها و شرحها و ناقشها و أشار إلى التوافقية و اللقاء و اللمس بينها و بين آيات القرآن، لكنه يبقى كتاب هداية و إرشاد للإيمان فى هدفه الأول و الأساس، حتى يصل المؤلف فى خلاصته إلى الدعوة إلى قيام علم إيمانى جديد و شامل يبنى على الأسس و الحقائق التى أودعها اللّه فى القانون الإلهى العام الأعظم للكون و الإنسان، و يصف هذا العلم بأنه «هو منقذ البشرية من ورطتها، و هو الذى يجدد صلة الإنسان بالسماء»، كما يصفه بأنه «۳» «منهج تجريبى عملى يكشف للإنسان عن نظم الطبيعة و خواصها و أسرار النفس الإنسانية، إنه لا يتحكم بأسلوبه الموضوعى فى عقائد الناس و لكنه يدعم إيمانهم باللّه و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر». و سنحاول أن نستعرض المنهج و الأحكام التى قررها هذا الكتاب، و الأسلوب المستخدم لتعامل القرآن مع العلم فيه. يقول فى مقدمة كتابه إنه سيقدم فيه «الدلائل الملموسة على شمول القرآن و صدقه و دقته فى معالجة الموضوعات التى تخص الإنسان و الكون»، و يبرهن على ذلك من خلال عرضه للعلوم المختلفة، ثم إشارته و برهنته على سبق القرآن للمس هذه المفاهيم. إن المؤلف يستعرض الأفكار و النظريات و القوانين العلمية أولا، ثم يستعرض ما توافق منها مع القرآن أو لمسها القرآن لمسا أو التقى معها التقاء، و قد منهج الكتاب

(_____ ۱) الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن- د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، ص ۷۹. (۲) المصدر السابق، ص ۸۰. (۳) المصدر السابق، ص ۱۴. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۶۳ على أساس منهجية العلوم نفسها و أقسامها، فمثلا: بعد أن يبحث التطور البيولوجى للكائنات الحية و يصل إلى بحث أطوار تكون الجنين، كما يقول العلم و كما يذكره القرآن، يقول: «و العلم يتوافق مع القرآن فى ذلك توافقية تامة رائعة»، و أحيانا يستخدم الحديث النبوى بنفس المعنى، و فى فصل آخر بعد أن يبحث الكون و نظرياته المختلفة يقول «۱»: «و وجدت أنه كتاب اللّه المنظور الذى لا يتعارض ما فيه من آيات فى الآفاق مع كتاب اللّه المقروء (القرآن الكريم)، و اكتشفت كيف مسّ القرآن الكريم توازن الكون الأعظم مسّا رقيقا فى إشارات كونية غاية فى الدقة و الشمول و الصدق»، و لأن هدفه، كما قلنا، إيمانى إرشادى، فبعد أن يقرر الحقيقة القرآنية و توافقها مع الحقيقة العلمية نراه يقول «۲»: «و توصلت إلى التوافقية بين القرآن و الفيزياء الكونية فى تحديد خواص الدخان الكونى الأول، و وجدت خطوات البحث تقودنى منطقيا إلى اللّه خالق كل شىء و إليه المصير»، بل نراه يعقد فصلا كاملا لبحث (المفاهيم النهائية التى يمكن الخروج من الحقائق القرآنية و ما يخدمها من الآراء العلمية) .. إنه، إذن، يأخذ حقائق العلم التى تخدم حقائق القرآن، ليبرهن بعد ذلك على وحدانية اللّه فى هذا الكتاب المعجز، إنه كتاب نموذج للتعبير عن العلاقة الأساسية للعلم بالدين الإسلامى من خلال القرآن، فهو، إذن، على الطريق السوى الذى حدد شروطه التفسير العلمى للقرآن و ضوابطه لا- خارجا عنها، رغم أنه يستوعب كل مفردات العلوم، نظريات و قوانين و حقائق، و لكنه لا يفتأ أن يعود لارتباطها بالقرآن الكريم و هدايته و إرشاده و إعجازه. فبعد أن يبحث الكون، نظريات و حقائق فى ضوء الفيزياء الكونية يقرر أن توازن الكون من آيات اللّه فى

الآفاق، فيصل إلى «أن هذا الكون المعجز ببنائه المذهل، فى اتساعه الرائع، فى حركته و اتزانه، هذا الاتزان الدقيق، لو اختل قيد شعرة، منذ البدء، فى أية جزيئة من جزئيات قوانينه، لا نفرط عقد هذا الكون و انهار كل ما فيه و من فيه». و بعد أن يستشهد بالآيات القرآنية المعبرة عن هذه الحقيقة، بعد كل هذا نراه يقول «۳»: «لقد جاء العلم، و جاء العلماء بألف ألف دليل على صدق ما ورد فى القرآن الكريم، جاء بألف ألف دليل على وحدة الكون و السماء و الأرض و الذرة

(_____ ۱) الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن- د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، ص ۱۲. (۲) المصدر السابق، ص ۱۷. (۳) المصدر السابق، ص ۱۴۱. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۶۴ و المجرة فى قوانين وجودها و حركاتها، و من هذه الوحدة درج الناس و العلماء إلى وحدة الكون» .. و إنه هنا لأشبه بالفخر الرازى فى كتاب «أسرار التنزيل و أنوار التأويل» حينما تحدث عن معلومات عصره من مبدأ تكون السماوات و الأرض، و معنى الرتق، و معنى الفتق وصولا إلى الاستدلال بصفات السماوات و أحوالها على أن لهما مدبّرا و صانعا، فهو على خطى سليمة من الضوابط التفسيرية التى وضعها القدماء لتفسير القرآن، إضافة إلى التزامه بالضوابط التى وضعها المعاصرون للتفسير العلمى. إن المؤلف يعتقد أن كل تقدّم بشرى مقبل سيكون تقدما فى عقل الإنسان و ملكاته الإبداعية، و لذا فهو يرى أن «۱» «من إعجاز القرآن الكريم إشارته إلى نشأة علوم حديثة لم يعرفها السابقون، و إنما لفت أنظارهم إليها، كما وجه أبصارهم إلى دراسة الكون، و تأمل ظواهره و الإحاطة بآيات اللّه فيه، و قد حملت آيات القرآن بذور هذا التقدم العلمى و أرشدت إليه و فكّت مغاليقه و تركت للعقل البشرى بعد ذلك استعمال رسالته حتى يتحقق من صواب نظريته أو خطئها»، إنه يعتقد بأن اللّه دعانا إلى الاستزادة من العلم فى قوله تعالى رَبِّ زِدْنِي عِلْماً [طه/ ۱۱۴]، لأنه سبحانه و تعالى يعلم أن علمنا لم ينته بما جاءت به الرسالات من معارف و توجيهات و إلا ما دعانا لهذه الاستزادة .. و إذا كان العلم الإنسانى يقوم على الجواب على كلمة كيف، فإن القرآن الكريم يدعونا دعوة واضحة، لا لبس فيها، إلى البحث فى الجواب عن هذه الكيفية حيث يقول أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (۱۷) وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (۱۸) وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (۱۹) وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ [الغاشية/ ۱۷- ۲۰]، فالجواب على هذه الكيفية هو مجال كل العلوم المعروفة لدينا اليوم و تبحثها كل العلوم بحثا دقيقا، و لكن لما ذا دعانا القرآن لذلك؟ هل لكى نعرف العلوم و نقف عند قوانينها جامدين و نصفها وصفا لا يتجاوز البحث عما وراءها و من جعلها و من سبّبها و وضعها؟ يقول المؤلف جوابا على ذلك «۲» «و المتأمل فى القرآن الكريم يلاحظ أن القرآن الكريم يعرض الحقائق العلمية فى صور مختلفة تنبئ بالحكمة و الموعظة الحسنة لكى تحقق الهدف الذى ذكرت من أجله، و هو هداية الناس إلى بارئهم فى خشوع و إكبار لصفة خالق الأكوان ذى الجلال و الإكرام».

(_____ ۱) الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن- د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، ص ۱۴۸. (۲) المصدر السابق، ص ۱۵۱. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۶۵ إن المؤلف يبين علاقة الحقائق العلمية و الآيات القرآنية باعتبارها علاقة توافقية، أو عدم تعارض الواحدة مع الأخرى من خلال القرآن نفسه، فهو دعا و يدعو إلى العلم فى كل آياته المتعلقة به، ففيه أكثر من سبعمائة و خمسين آية، و هى أكثر من آيات الأحكام ذاتها، تعرض لمسائل علمية بعضها عام و بعضها مفصل، و أعطى القرآن لذوى العلم موقعا متميزا فى الدنيا و الدين، و فى معرفة اللّه، و مدحهم مدحا كبيرا حينما قال بأنهم هم الذين سيعرفون أن ما أنزل على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم هو الحق وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَ يَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [سبأ/ ۶]، فالعلم ليس خصما للإيمان، كما يقول بعض الملحدين، بل هو دليل إليه. و يصل المؤلف إلى التأكيد على أن العلوم الطبيعية و الفيزياء الكونية هى علوم إسلامية لأنها علوم قرآنية فى موضوعها و فى طريقتها، و يستشهد بآيات كثيرة مما جاء من ذكر العلم فى القرآن، و يشير أيضا إلى الدعوة لمعرفة طبيعة الشمس و القمر فى القرآن، كما قرر القرآن حقائق علمية كثيرة تتعلق بالكون و الكائنات، بل إن القرآن دعا، كما يقول المؤلف، إلى البحث العلمى و طلب العلم، لأن المنهج العلمى كان وراء المعرفة الدقيقة للحقيقة الكونية، و من ثم كانت هيمنة العلم على كثير من مظاهر

حياتنا، و لما كان اللّه قد جعل الإنسان خليفة فى الأرض لذا طالبه بأن يكون عالما و عليما بسنن الكون التى ستقوده إلى أن يكون قادرا و أمينا على هذه الخلافة، و لعل دعوة القرآن للمخاطبين بما يعقلون خمسين مرة، و بما يعلمون مائة مرة، و بما يتفكرون و يتفقهون ثلاثين مرة فى القرآن دليل واضح على هذا الاهتمام الاستثنائى للقرآن بالعلم. كل هذا كان هو الأساس الذى بنيت عليه «حقيقة عدم تعارض القرآن مع العلم على الإطلاق»، و لهذا فالمؤلف يؤكد أنه «ما تقدم العلم خطوة إلا و كشف عن ناحية من نواحى الإعجاز العلمى فيه، و أضاف برهانا جديدا يؤكد أن القرآن كتاب اللّه الذى لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت/ ۴۲]. هكذا، إذن، يبين المؤلف قناعاته ليدلل على الرابطة الوثيقة و الأكيدة التى تحمل آيات القرآن إلى الحقائق العلمية، و مع هذا فنراه قلّما يستخدم كلمة إعجاز علمى إلا باستشهاداته عن الآخرين، و أحيانا كعبارة عرضية، و إنما أكثر ما يؤكد على كلمة التوافقية بين القرآن و الحقيقة العلمية، اللهم إلا- إذا فهمنا هذه التوافقية عنده هى بمعنى الإعجاز العلمى الذى نستخدمه نحن. فحينما يعقد فصلا خاصا عن هذه الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۶۶ التوافقية و تحت عنوانها و يؤكد فيها «۱» «إننى أشعر كلما قرأت القرآن الكريم- بعد أربعة عشر قرنا من نزوله- أنه يتنزل اليوم، فلم أجد فيه ما يناقض (حقيقة) أثبتها العلم الحديث، اللهمّ إلا إذا كانت هذه (الحقيقة) نفسها لا تزال أبعد ما تكون عن الحقيقة، أما الحقائق الثابتة، فإنى أرى صداها فى القرآن الكريم»، و هذا ما يوجب عليه أن ينطق بكلمة معجزة علمية إلا- أنه لا- يفعل ذلك إلا من خلال استشهاده بنص لمؤلف اسم كتابه «معجزة القرآن» لنعمت صدقى، فيقول «۲»: «و فى القرآن آيات أخرى اكتشفت معانيها على مر السنين، أو ما زالت تنتظر ما يجلى معانيها، و بذلك أثبت العلم الحديث أن القرآن معجزة كل العصور الغابرة و القادمة، و العالم الذى يتضح له ذلك يقتنع بأن القرآن لم ينزل لتنفيذ تعاليمه فى زمن محدود بوقت نزوله، بل إنه الكتاب الذى يجب أن يظل (سائر المفعول) إلى آخر الزمان، و تعاليمه مناسبة لكل عصر، لأن علومه توافق كل عصر، و ما ذلك إلا لأنه من عند اللّه الذى خلق الإنسان و الذى يعلم أحواله و تطورها فى كل زمان، فأنزل ما يتضمن هدايته و مساعدته على الخلافة فى الأرض جيلا بعد جيل، و زمانا بعد زمان». كما أن المؤلف حتى حينما يستخدم كلمة معجزة، و هى قليلة جدا، فهو يضعها فى مقابل التوافقية حيث يقول «۳» «فإذا اكتشف الإنسان بالعلم شيئا من تلك الحقائق الكونية فى ذلك أيضا شىء من معجزات القرآن و معجزات الرسول الأمين محمد عليه الصلاة و السلام، و تحقيق ذلك على أيدى علماء الجغرافية الفلكية المعاصرين ليس فيه، إلا أنهم جاءوا ببعض ما جاء به القرآن قبل أربعة عشر قرنا. التوافقية- فى هذه النقطة- موجودة قائمة». إن التفسير الذى يمكن أن يقبل من المؤلف على ذلك ليس لعدم قناعته الأكيدة بأن الآية و الحقيقة تتعامدان تعامدا مؤكدا، و لا شك أو ظن قد يخطر فى البال من التخوف أن تتغير الحقيقة العلمية فنكون قد أخطأنا بفهم الآية، و هذا يؤكده النفس الإيمانى العميق الذى يتكلم به المؤلف فى كافة مفرداته و تفاصيله. إن هذا الاستعمال لكلمة التوافقية جاء كبيرا دقيقا و علميا فى مفهوم الكاتب للتعبير عن هذا الاتصال بين الآية و الحقيقة العلمية، ذلك لأن القرآن، حين ذكر الحقائق الكونية، لم يستخدم أسلوب البشر فى هذا الإثبات، بل استخدم أسلوب الإشارة و الرمز و المجاز و الاستعارة، و بعبارات توحى أو تومض بهذه الحقيقة، فأسلوبه أدق فى التشخيص (_____ ۱)

الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن- د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، ص ۱۷۱. (۲) المصدر السابق، ص ۱۷۳. (۳) المصدر السابق، ص ۱۷۷. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۶۷ من استعمال عبارة المعجزة باستخدام التوافق، يقول فى هذا «۱» «إن القرآن الكريم قد عرض كثيرا من الحقائق الكونية، و لكنه عند ما يعرض أى قضية من قضايا الكون العلمية لا- يعرضها بأساليب البشر كاستعمال المقدمات- الدلائل، المعادلات- استنباط النتائج و إنما يقدمها بالإشارة أو الرمز أو المجاز أو الاستعارة أو بالعبارات التى تومض فى العقل بنور روحى باهر»، و هذا يعود إلى طبيعة الأسلوب القرآنى نفسه، و إلى أن هذه الحقائق سوف لا تدرك كاملة فى عصرها و إنما ستأتى عصور لاحقة تتطور العلوم و المفاهيم خلالها فيستطيع الإنسان فهمها كما أراد اللّه لها، و إلا فما معنى أن ينزّل اللّه قوانين و حقائق لا- يستوعبها أهل عصرها، و تكون عليه أشبه بالظلمات الغامضة، فاتجه الأسلوب القرآنى إلى الرمز و التشبيه و

غيرها من الأساليب، و ربطها بالحكمة و الإرشاد و الهداية لكى تؤدى غرضين فى وقت واحد، غرض يستفيد منه القدماء الذين نزلت الآية فى وقتهم و ما بعدهم بقليل، و غرض يستفيد منه اللاحقون بعد تقدم العلوم و انكشاف الغطاء عن الحقائق الكونية الجديدة. فعظمة القرآن هنا تظهر فى مخاطبته لجهتين بنفس الأسلوب و المفردات، و لكن كل منهم يفهم معانى أعمق من الآخر، و لكن الهداية واحدة للاثنين و الإرشاد متساوى عند الطرفين، و فى ذلك يقول المؤلف «۲» «إن اللّه سبحانه و تعالى ينزل آيات، قد لا يدركها أو يفهم حقيقتها و أسرارها فى وقت نزولها كل المعاصرين لها، لأن العلم بقوانين الكون كان محدود الآفاق آنذاك، و لكن اللّه سبحانه و تعالى يعلم أن المستقبل سوف يأتى بفرص مناسبة لتوسيع مدلول الآيات الكريمة بما يخدم الإنسان و يرسخ حركته فى الكون و الحياة، و يحقق الخلافة فى الأرض لبنى الإنسان، قال تعالى سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت/ ۵۳]، و لا شك أن هذه معجزة ما بعدها معجزة ..». ينتهى المؤلف بالدعوة إلى منهج إيمانى علمى معتمدا على أن «۳» «المنهج الإيمانى للدراسات الجغرافية فى القرآن و السنّة لا يجد غرابة و لا عجبا أن يأتى القرآن، و هو المعجزة الكبرى، بتلك الموافقات و المطابقات لكل ما وصلت إليه العلوم الحديثة من نتائج، و وصل إليها العلماء بعد مئات السنين من الدراسة و البحث و التأمل، لأن العلم و الدين فى الإسلام شىء واحد، فالعلم يصل بك إلى الدين، و الدين يصل بك إلى العلم، و المنهج الإيمانى قبل كل شىء يؤكد بطريقة علمية أن (_____ ۱)

الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن- د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، ص ۲۲۲. (۲) المصدر السابق، ص ۲۲۲. (۳) المصدر السابق، ص ۲۶۷. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۶۸ اللّه هو خالق الكون، و هو المهيمن على قوانين الحركة فيه بإرادته، و هو فى كل ذلك رحمن رحيم، و تجب عبادته و العمل بشريعته، و أنه سبحانه و تعالى نظم هذا الكون على أسس و قوانين و سنن غاية فى الحكمة و الشمولية و الدقة، يقول سبحانه و تعالى وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً [الفرقان/ ۲]». و لو أخذنا مثلا تطبيقيا لمنهج الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر، فى التوافقية بين آيات القرآن و مفردات العلم و اكتشافاته، لوجدنا مصداقا واقعيا لهذا النهج الدقيق، و سنحاول أن نقتطع فقرات من فصول مختلفة من كتابه لإيضاح و جهة النظر هذه. ففى الفصل السادس، و الذى عنوانه (السنن الكونية و قوانين الفطرة بين البحث العلمى و القرآن) يبدأ فيه بفقرة تحت عنوان (كيف يسير الكون) يقول فيه الدكتور: نبّه القرآن الكريم إلى أن الكون كله يسوده نظام محكم وفق سنن إلهية يسير الكون بمقتضاها، و قوانين لا تفاوت فيها و لا نقص، فيقول سبحانه عز من قائل: الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ (۳) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ [الملك/ ۳، ۴]، و قد خلق اللّه كل شىء فى هذا الكون بقدر، أى بتقدير كمى و زمانى وفق ماهية سابقة، و إن شئت قلت حدّده و أعطاه أو صافه حسب قوانين الفطرة و سنن الكون الشاملة، و جعل له رتبة وجودية معينة. فمثلا وضع الخالق الأعظم كل موارد الثروة الاقتصادية فى الأرض حسب سنن كونية تحقق التوازن فى الأرض، قال تعالى وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها [فصلت/ ۱۰]، أى إن من سنن اللّه فى الكون أن يكون كل شىء فيه برتبة واحدة، فمعنى قضى و قدّر: حكم و رتّب، و معنى القضاء و القدر حكم اللّه تعالى فى شىء ما أن يسير على سنة ما و لأجل ما، و الآيات الكريمة تدلّ على وجود سنن إلهية دقيقة، و على أساسها تم تقدير المخلوقات تقديرا كميّا خاضعا للقياس و النظام الدقيق، و تتضح تلك المفاهيم فى قوله تعالى وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً [الفرقان/ ۲]. و من تلك التقديرات الإلهية التى تفلسف سنن الكون و قوانين الفطرة تحديد مسار الشمس و حركتها و فلك القمر و مناطق منازله، يتضح ذلك فى قوله تعالى وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۳۸) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ [يس/ ۳۸، ۳۹]، و نحن بذلك نرجع بقوانين الكون و الفطرة إلى أبسط قواعد الدين الفطرى الذى هو الإسلام و الذى من أصوله: أن لهذا الكون الباهر البديع غير المتنافر صانعا حكيما لا تدركه الأبصار، خلق كل شىء الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۶۹ فقدّره تقديرا، و قد رأينا أن منهج القرآن، فى تناول الظواهر الكونية، هو الإشارة المجملة إلى بعض الظواهر، و ما أشبهها، ثم جاء العلم الحديث فكشف كثيرا من الأسرار التى أجمل القرآن الحديث عنها، و جميعها يدلّ على دقة السنن

الإلهية التى وصفها اللّه لتسيير هذه الظواهر فى الكون و الحياة. و من ذلك مثلا قوله تعالى وَ اللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ [فاطر/ ۹]، و منها نفهم أن الخالق الأعظم قد وضع لنزول المطر قوانين خاصة و جعل للرياح فيها دورا خاصا، بحمل السحب و إثارة الشحنات الكهربائية المختلفة فتلاقحها ببعض، أو بذرات الغبار ليتكثف بخار الماء و لكنه لا ينزل إلا حسب القانون الإلهى الخاص بتوزيع المطر على الأرض، فتذهب السحب إلى البلد الميت (مناطق الجفاف) فيسقط المطر و تزدهر الحياة، و قد وضع الخالق الأعظم للكائنات نظاما خاصا فى المعيشة يسمى نظام المعيشة التعاونية لتسهيل أسباب الحياة، قال تعالى وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ [الأنعام/ ۳۸]. و جاءت السنن الكونية فى تصنيف الكائنات الحية، حسب أنماط حياتها فى منتهى الدقة، فى ذلك يقول القرآن مشيرا إلى قانون شامل مؤداه أن كل المخلوقات الحية خلقت أساسا من الماء وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ [النور/ ۴۵]. و قد وضع الخالق الأعظم قانونا ينطبق على كوكبنا الأرضى يختص بتوزيع الضياء و الظلام و علاقتهما بالحياة البشرية، و دور كل من الشمس و القمر فى ذلك، قال تعالى: فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [الأنعام/ ۹۶]. و من أمثلة السنن الكونية العظيمة، التى توصل إليها العلم أخيرا، قانون استقرار الأرض و توازنها، و ما تبع ذلك من قوانين الفطرة التى يخضع لها نظام الأرض لتكون صالحة للحياة، و لكن أكثر الناس لا يعلمون ما فى الأرض من سنن كونية عظيمة، يقول سبحانه و تعالى: أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِىَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ [النمل/ ۶۱]. و تشير الآية الكريمة إلى الاستقرار العام الذى تتسم به القشرة الأرضية حاليا، لأنها، قبل نشأة الحياة عليها، لم تكن مستقرة فى عصورها الأولى قبل أن تبرد، و إذا كان استقرار الأرض لا يتصف بالشمولية المطلقة، على اعتبار وجود مناطق نشطة بالزلازل و البراكين بشكل متقطع، فإنما ذلك لإحداث التوازن للأرض من جهة، و من جهة أخرى لتنبيه البشر إلى قدرة اللّه سبحانه و تعالى و أخذه الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۷۰ بناصية الأرض و كل من عليها، شأنها فى ذلك شأن جميع أجرام الكون. كما تشير الآية الكريمة إلى قانون من قوانين الفطرة التى تشملها سنن اللّه الكونية، و هو قانون التوتر السطحى الذى يخضع له الماء، سواء العذب منه أو المالح، بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر عند لقاء الأنهار بالبحار و المحيطات، و تتلخص تلك الظاهرة فى عدم الاختلاط الفورى لمياه البحر المالحة بالمياه العذبة للأنهار الكبيرة ... كما نجد قانون الفطرة الخاص بتولد الرعد و البرق فى السماء، يخضع الظاهرة لما يسمى بالكهربائية الكونية التى تتولد من احتكاك السحاب، يقول سبحانه جلّ من قائل عليما هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ [الرعد/ ۱۲]، و يقول سبحانه و تعالى: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ [النور/ ۴۳]، إنها سنن اللّه الكونية التى أودعها فى هذا الكون الكبير ليسير كل شىء فيه وفق تخطيط مسبق و إرادة إلهية عليا منظمة، و انسجام كامل فى كل الموجودات. فكل شىء فى هذا الكون الفسيح من الذرة و المجرات العملاقة يسير وفق هندسة إلهية و تقدير محكم و نظام دقيق. فالذرة المتناهية فى الصغر عالم هائل فيه هندسة و حركة و قوانين و طاقة، و كل شىء فيها يسير وفق تقدير مطلق الدقة». و بعد أن ينتهى الدكتور عبد العليم من حديثه عن كيفية سير الكون و الدقة و التوازن الذى يحكمه، يأتى فى فصل آخر بعنوان (النسبية فى قوانين الحركة الكونية بين المفهوم العلمى و منهج القرآن)، و فى فقرة (قوانين الديناميكا الحرارية و نهاية الكون) ليقول فيها «إن هذا الكون كانت له بداية هى الدخان ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِىَ دُخانٌ [فصلت/ ۱۱]، و لم يكن أزليا و لن يكون بصورته هذه أبديا، فلا بد أن سيكون له يوم تكون فيه النهاية، لأن قوانين الديناميكا الحرارية و الطاقة المتاحة يؤكدان أن الحرارة تنتقل دائما من وجود حرارى إلى وجود غير حرارى، و باستمرار هذا العملية لا بد أن يأتى وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات فتنتهى كل العمليات الكيميائية و الطبيعية، و بانتهائها تنتهى الحياة تلقائيا على أرضنا و ما يشبهها من كواكب الأكوان البعيدة. و هذا الكون العظيم المعجزة فى بنائه، المذهل فى اتساعه، الرائع فى حركته و اتزانه، هذا الاتزان الدقيق الذى

لو اختل شعرة، فى أمر من أموره، لا نفرط عقد هذا الكون و انهار كل ما فيه و من فيه، و لمّا كان هذا الكون منذ ملايين السنين يسير على نفس السنن فإن الذى يصونه مما قد يتعرّض له من كوارث هو اللّه، هو اللّه الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۷۱ الذى لو رفع عنا حمايته برهة من زمن لهلكنا و هلك كل من معنا، هو اللّه الذى جعل أرضنا فى هذا الموقع الممتاز الذى يقدر بعده بحوالى ۹۳ مليون ميل من الشمس، و لو كان قد جعلها ضعف بعدها الحالى من الشمس لنقصت كمية الحرارة التى تصلنا إلى ربع كميتها الحالية، أى إن الحياة كانت تقتصر على شريط ضيق فقط حول خط الاستواء الذى تصير درجة حرارة المناطق المحيطة به حوالى ۱۲ م فقط طول العام، و تهلك الحياة فوق باقى أجزاء الكوكب ... هذا طبعا إذا لم نأخذ فى الاعتبار مسائل أخرى. إن مجرد ابتعاد الأرض عن الشمس بحوالى ۱۸۶ مليون ميل فقط أمر يجعل الأرض تقطع دورتها حول الشمس فى وقت أطول مما يترتب عليه طول فترة الشتاء إلى ما يزيد عن زمن يساوى السنة التى نعرفها الآن، و هى ظروف يستحيل معها بقاء صور الحياة فوق الكوكب، و هو اللّه الذى جعل أرضنا فى هذا الموقع الممتاز الذى لو كان أقل من ذلك، النصف مثلا [(۵، ۴۶) مليون ميل]، لصارت سرعة الأرض أعظم و حرارتها أشد، حتى تتبخر المياه فى نخاع جميع الكائنات فوقها، و لاندلعت الحرائق فى كل شبر منها، و لأصبحت مثل الكوكب عطارد تماما، و هو اللّه الذى جعل أرضنا فى مثل هذا الحجم المثالى، و لو كان قد أراد لأرضنا غير ذلك- حسب مشيئته تعالى- كأن تكون فى مثل ۴/ ۱ حجمها الحالى لما أمكن أن تحتفظ بغلافها الجوى الذى لولاه لانعدمت الحياة بسبب غياب عنصر الأوكسجين، و تنعدم النباتات لانعدام المياه، و ينعدم ظهور الشفق قبل الغروب و بعد الغروب، و يهجم الظلام على ضوء النهار فجأة، كما يطلع النهار و يتبدد الظلام فجأة، و يصبح الفرق فى درجة حرارة سطح الأرض ليلا و نهارا فرقا كبيرا قد يبلغ مئات الدرجات، و تصبح الأرض معرضة لمزيد من الأشعة الكونية القاتلة لكل شىء فى طريقها، و يصبح انتقال الصوت من مكان لآخر صعبا، و تنعدم السحب، و تختفى الأمطار، و تجف الأنهار، و تسودّ صفحة السماء بعد زرقة، و تظهر النجوم نهارا كظهورها ليلا، و كل ذلك يذكرنا بهول يوم القيامة حيث يقول سبحانه و تعالى كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (۲۶) وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (۲۷) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ [الرحمن/ ۲۶- ۲۸]، و لا- يملك التعبير البشرى أن يصور الموقف، و لا يملك أن يزيد شيئا على النص القرآنى الذى يسكب فى الجوانح السكون الخاشع و الجلال الغامر و الصمت الرهيب، الصمت الذى يرسم مشهد الفناء الخاوى، و سكون الموت بلا حركة فى جنبات الكون الذى كان حافلا بالحركة و الحياة، كل شىء سيتغير يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۷۲ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ [إبراهيم/ ۴۸]، و نحن لا ندرى كيف سيتم هذا و لا طبيعة الأرض الجديدة و طبيعة السماوات، و لا مكانها و لكن النص يلقى الظلال، ظلال القدرة التى تبدل الأرض و تبدل السماوات، و تبعث الارتجاج و الهلع فى الأرض كما يقول سبحانه يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا [المزمل/ ۱۴]، القدرة التى تجعل السماء تنفطر و الكواكب تنتثر و البحار تفجر و القبور تبعثر، القدرة التى تجعل الجبال تسير و الأرض تميد وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً [الكهف/ ۴۷]. وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ [التكوير/ ۳]. كل ذلك آيات على قدرة الخالق جل و علا، فتبارك اللّه أحسن الخالقين ... و إليه ترجعون». و فى فقرة ثانية من نفس الفصل، و تحت عنوان (هل تشتعل البحار)؟ يقول الدكتور عبد العليم مفسرا آية وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ [التكوير/ ۶] «إن تفجير البحار يحتمل أن يكون هو امتلاؤها و غمرها لليابسة و طغيانها على الأنهار، كما يحتمل أن يكون هو تفجير مائها إلى عنصريه الأوكسجين و الهيدروجين، فتتحول مياهها إلى هذين الغازين كما كانت قبل أن يأذن اللّه بتجميعهما، و تكوين البحار منهما، كذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين، كما يقع فى تفجير القنابل الذرية و الهيدروجينية اليوم، و قد أمكن اليوم فصل ذرة الأوكسجين عن ذرتى الهيدروجين التى يتكون من ثلاثتها الماء، و علوم البحار توصلت الآن إلى أنه يقع فى أعماق المحيطات السحيقة هيدروجين طليق يتكون من ذرات ثقيلة، و من الممكن تحطيم إحدى هذه الذرات بفعل ضغط كهربى من صاعقة مثلا، أو بفعل حرارة هائلة تندلع بصورة مفاجأة من باطن الأرض الملتهب عبر شق يحدثه انكسار فى صخور القاع النارية، و من المعروف أن ذرة الهيدروجين تشتمل على نواة تتكون من بروتون واحد (لا- يوجد هنا نيوترونات)، و يدور حولها إلكترون، و يقع هذا المدار فى

مستوى الطاقة الأولى أو فى السماء الأولى الأقرب إلى النواة، و الوزن الذرى للهيدروجين ۰۰۸، ۱ و العدد الذرى ۰۱، و حين يبدأ اشتعال الهيدروجين الموجود فى الماء عند قيعان المحيطات، من جراء زلزال كبير أو بركان عظيم، تنطلق منه كميات هائلة من الطاقة الإشعاعية، و لن تكون من النوع الذى نراه فى موقد أو فى كوم من ما أشارت إليه الآية الكريمة التى سبقت عصر العلم بألف و أربعمائة سنة، و التى تقول وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ [التكوير/ ۶]. و بذلك يثبت العلم أن ما جاء بالآية الشريفة هى الحقائق التى وصل إليها العلماء فقط عند ما حان أمر اللّه بالسماح للإنسان أن يكشف شيئا من ستار المجهول تحقيقا الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۷۳ لوعده سبحانه و تعالى: سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ [فصلت/ ۵۳]، و بعض المفسرين يرى فى معنى قوله تعالى: وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ أى غاض ماؤها، و ملئت بالنار بدل الماء، و لا غرابة، فباطن الأرض شديد الحرارة جدا بدليل البراكين التى تخرج منه، و ليس ببعيد عند ما تأتى النهاية أن تتشقق الأرض و يغيض الماء لتبخره فى الجو بردا، و يمتلئ البحر بالنار التى تخرج من باطن الأرض». أما النموذج الثالث لتفسير القرآن تفسيرا علميا فإنه مع تصورات الأقدمين، التى ذكرناها، من أن القرآن فيه كل علم و كل معرفة حتى عدّوا العلوم بسبعين ألف علم و أكثر، و ما ذكره ابن مسعود أن فيه علم الأولين و الآخرين، و ما ذكره الغزالى عن أن تحت كل كلمة من كلمات القرآن علم، لأن القرآن يتحدث عن صفات اللّه و أفعاله، و الكون هو من خلق اللّه و أفعاله، و ما ذكره ابن مجاهد أنه ما من شيء فى العالم إلا- و هو فى كتاب اللّه، و ما قاله ابن أبى الفضل المرسى من أن القرآن جمع علوم الأولين و الآخرين، بل و يستشهد السيوطى لأبى البكر بن عربى من أن القرآن فيه علوم على عدد كلمات القرآن مضروبة فى أربعة، لأن لكل كلمة ظهر و بطن و حد و مطلع، عدا ترتيبها و الروابط بينها، و هذا مما لا يحصى و لا يعلمه إلا اللّه، بل و يعتبر بعض القدماء أن حدود علم اللّه لا نهاية لها، مستشهدين بقوله تعالى فى القرآن وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ [لقمان/ ۲۷] قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً [الكهف/ ۱۰۹] و آخر من قال به، بهذا المعنى، الفخر الرازى الذى قال «۱»: «ما من حرف و لا حركة فى القرآن إلا و فيه فائدة، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها و لا- تصل أكثرها و ما أوتى البشر من العلم إلا قليلا». يلتقى هذا النموذج الثالث مع جميع هذه الأوصاف للقرآن و يحاول البرهنة عليها بكتاب كامل اسمه (القرآن تفسير الكون و الحياة) للأستاذ محمد العفيفى، أى أن هذا الكتاب يحقق و يؤمن بأن القرآن فيه تفسير كل شيء، و فيه الحقيقة المطلقة، و فيه الثبات الحقيقى فى الحياة، و هو التطابق بين كلمات القرآن و بين تغيرات الحياة و مكتشفات العلم، و يعتبر أن القرآن يقول الفصل فى كل شيء لأن فيه علم كل شيء، و يؤكد على أن فى العالم كتابا واحدا قدم للناس جميعا حقائق العلم قبل أن تثبت فى معارك العلاقات بين الوعى البشرى و بين مادة الكون، و يقول بأن القرآن،

(_____ ۱) الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن- د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، ص ۲۲۲. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۷۴ بصفته كلام اللّه تعالى، هو اليقين الوحيد فى عالمنا الذى تختلف مادته و لا تتفق بغير قدرة اللّه، و يرى بأن الحق هو ظهير الكلمة، فإن عبدنا الحق صدقت كلماتنا، و إن أخضعنا كلماتنا لكلمات اللّه فزنا بالعلم كله، بل إنه يصر على أن القرآن، حقا، هو تفسير الحياة، و لا يمكن أن يكون للحياة تفسير غير القرآن، و يقصد بالحياة الكون و الوجود كله، و يشير بتعبير آخر إلى أن القرآن هو التفسير لليقين الوحيد المطلق لكل شيء فى الحياة فى شمولها و تفصيلها، و أن سائر علوم الحياة و سائر بحوثنا فى صحيح المادة إنما هو أمر سبقنا القرآن إلى بيانه، و دعانا إلى معرفته، و أن علماء العالم لو اجتمعوا كلهم على الآيات القرآنية الكونية لاكتشفوا سبق القرآن للوعى البشرى إلى اكتشاف كل الحقائق، ثم يفسر قوله بأن العلم الذى أنزله اللّه تعالى على رسوله فى القرآن هو علم الصلة بين كل شيء و كل شيء من طريق تفصيل الحياة بالخلق و تفصيل القرآن بالأمر. و هكذا ينتهى إلى القول بأن صلة الوعى البشرى بالحياة كلها احتمالات و تغيرات و مفاجآت و انقطاع عن العلم الحقيقى، و لو لا القرآن، الذى أعان الوعى البشرى على اكتشاف العلوم، لبقى الإنسان فى حيرة من أمره. ثم يختم تصوراته بأن الإيمان هو أعلى درجات العلم، و أنه لا- علم البتة إلا- و هو الإيمان، لأن عمل الإنسان إذا انقطع إلى نفسه فهو احتمالات فى

احتمالات فى حين أن اليقين و الثبات لا يكونا إلا بارتباط هذا العمل بالحقيقة، و الحقيقة هى فى كلام اللّه «۱» «إن العمل الإنسانى متحقق حقه فى البقاء إن كان عملا إنسانيا صالحا، و اللّه هو الذى يحقه، فبقاؤه إنما يتم بإحقاق اللّه له»، و يقول: لا وجود و لا عمل- للإنسان- بغير خلق اللّه للإنسان و لمادة الحياة، ثم يعمل الإنسان عملا احتماليا لا يتحقق إلا بالحق، و الحق هو اللّه، و الحق يهدى إلى الحق، أى أن التزام الحق فى العمل يحقق احتماليته، فيجعلها متحققة بالحق أو باطلة بإبطال الحق لها، فالاحتمال فى حدود عمل الإنسان و اليقين هو خلق اللّه وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ [الصافات/ ۹۶]، و يصل إلى إثبات أن القيمة الحقيقية هى عبادة كل شىء للّه، و أن القرآن هو التفسير الحقيقى لكل أحوال الحياة لأن القرآن مفصل تفصيلا مطلقا بينما الحياة مختلفة. إذن، فهذا النموذج فى التفسير للقرآن يعطى كل كلمات المبالغة عن القرآن حقيقتها فى القرن العشرين، بعد أن أعطاها القدماء حقيقتها حينما جعلوا كل العلوم تصب و تنبع (_____ ۱) القرآن تفسير الكون و الحياة- محمّد العفيفى، ص ۹۷. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۷۵ من القرآن مهما كانت بعيدة، و لكن الملاحظة الذكية الأولى التى يبدأ بها المؤلف كتابه، و هو يحتاط لتعليمات كلماته كى لا يساء فهمها، هى تأكيده فى أول عبارة من كتابه على توضيح ضرورى جدا لفهم أفكاره فهما سليما حيث يقول «۱» «من حقيقة القرآن أن فيه تفصيل كل شىء ... و أول ما يتعثر فيه الوعى البشرى، و هو يحاول فهم أن القرآن فيه تفصيل كل شىء، أن يظن أن القرآن فيه تفصيل مادة الحياة بذاتها ... حتى لقد ظن بعض الناس أن القرآن فيه ذكر أجزاء المادة، أو تفصيلات المعادلات الرياضية أو الكيميائية، إلى غير ذلك من تفصيلات الوقائع المادية ذاتها ... و ليس فى ذلك شىء من الصواب، و أن القرآن لهو أعظم و أعلى قدرا من أن يكون ضمن محتويات الحياة المادية. إن القرآن كلام اللّه، فهو، كما سنرى، فوق الحياة و ليس ضمن محتوياتها، القرآن فيه تفصيل كل شىء، حيث هو مهيمن على تفصيلات المادة بتفصيلات الحقيقة المحيطة بسائر علاقات الأشياء بعضها ببعض، فالخلق، أى أجزاء الأحياء و الأشياء فى رحاب الكون، لا بد له من علاقة بالخلق، و الإنسان، و هو يبحث فى حقائق الكتل المادية، لا بد له من حساب فى علاقته هو نفسه بهذه الكتل المادية، الإنسان و مرائيه و مشاهداته بحاجة إلى علاقة ثالثة، إلى ضلع ثالث، يكمل مثلث الإنسان و الأشياء بضلعهما الثالث و هو الأخلاق أو مراقبة المجتمع الإنسانى له»، علما أن الأخلاق عنده ليست بالمعنى المباشر المعروف و إنما هو يبنيها على أساس نوع السلوك الإنسانى تجاه علاقة الإنسان بالأشياء بعد إدراكها له بشكل معين، فيقول «۲» «إذا كانت المادة تتحول إلى طاقة، و الطاقة تتحوّل إلى مادة، و كما هى حقيقة حياتنا التى نحياها، فإن سائر المنتجات المادية تتحول إلى أخلاق، أى إلى لحظة التصرّف فى المنتجات، و قد يكون التصرّف أمينا صادقا يعطى كل ذى حق حقه، و قد يحدث عكس ذلك تماما، و على ذلك، فالعالم كله بحاجة إلى هذا الاكتشاف الضخم فى كلمات القرآن لأنها تحقق ذلك كله، و تعطى كل مرحلة منه حقها الواضح الذى يربط بين المادة و الأخلاق ربطا عضويا لا- شك فيه، كما حدد القرآن لكل كلمة من كلماته قيمة يقينية هى أعز من حقائق العلم التطبيقية نفسها». فكيف بنى هذا المؤلف منهجه فى الكتاب؟ و ما هى الأسس التى اعتمد عليها فى إثبات هذه الفروض التى طرحها فيه؟ و من ثم حكمه على الإعجاز العلمى للقرآن، و ما هى المساحة التى أعطاها له؟ (_____ ۱) القرآن تفسير الكون و الحياة- محمّد العفيفى، ص ۷. (۲) المصدر السابق، ص ۵۰. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۷۶ يبدأ المؤلف تحديد منهجه فى الكتاب فى الفصل الأول، الذى أعطاه عنوان (و تفصيل كل شىء)، منطلقا من أن حقيقة القرآن أن فيه تفصيل كل شىء، لا بمعنى تفصيلات المادة و جزئياتها و معادلاتها و كيميائيتها و إنما بمعنى أن كلام اللّه الشامل المهيمن على تفصيلات المادة بتفصيلات الحقيقة المحيطة بسائر علاقات الأشياء بعضها ببعض، أى أن الحقائق الفكرية الشاملة فى القرآن تحكم الوقائع المادية الكثيرة فى الحياة، و الحقيقة القرآن ثابتة لا تتغير، فى حين أن وقائع الحياة المادية تحكمها التغيرات و التضاد و الاتصال، لذا فإن الحقيقة القرآنية هى فوق الوقائع المادية و تحكم حركتها و تغيرها و تضادها بمقولتها الفكرية، و لهذا فهى فوق الحياة، و تهيمن على تفاصيلها، و لو

كانت ضمن الحياة لشملتها صفة الحياة التى هى التغير- كما هو الحال مع كلام البشر- الذى يتغير مع الحياة ليلا حق ظواهرها و لأنه منها و ضمنها، و يدلّ على هذا أن الحقيقة المطلقة الثابتة التى لا- تتغير هى كلمات القرآن وحده، فى حين جميع حقائق البشر المكتشفة هى نسبية و احتمالية و قد تتغير مع كل جديد و علم جديد. إن كلمة «و تفصيل كل شىء» القرآنية يفهمها المؤلف فهما شاملا، فهى بمعنى أن الحياة لمّا كانت مفصّلة فى مفرداتها تفصيلا دقيقا و فى كل مفرداتها، لذا فإن كلمات القرآن المعبرة عن هذه التفصيلات المتكاثرة بتفصيل يطابقها مطابقة الحقيقة للواقع، و يعتبر أن التفصيل القرآنى هو معجزة لكلمات القرآن و آياته جميعا، و أى كلمة قرآنية وردت مرة واحدة فيجب أن يكون واقعها المادى واحدا أيضا، و إذا وردت أكثر من مرة كان واقعها معها يتناسب و يتناظر مع العلاقة بين الكلمة و علاقاتها فى الجملة الكلامية، و تشابك علاقات الواقعة أو المعنى المادى المشيرة إليه فى واقع الحياة و تشابكاتها. و لذا يصف الكاتب هذا التفصيل المعجزة بقوله بأنه «۱» «تفصيل مطلق شامل، يتّصل بكلمات القرآن جميعا، كما يتصل بمواضع الخضوع لها فى وقائع الحياة، سواء كانت وقائع فكرية أو عملية فى المجتمع الإنسانى، أو فى رحاب الكون المادى نفسه» .. إن كلمة «تفصيل» وردت فى القرآن مرتين، كما يقول المؤلف، وردت فى سورة الأعراف فى قوله تعالى وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ (_____ ۱) القرآن تفسير الكون و الحياة- محمّد العفيفى، ص ۱۶. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۷۷ يُؤْمِنُونَ [الأعراف/ ۵۲]، و وردت فى سورة الإسراء بقوله تعالى وَ يَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا (۱۱) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا [الإسراء/ ۱۱، ۱۲]، و يقول المؤلف معلقا «۱»: «سنحاول أن نربط بين التفصيلين: تفصيل القرآن، و هيمنة تفصيله على تفصيل كل شىء، من ظواهر العلاقات بين الوعى البشرى و بين المسيرة الكونية، بليلها و نهارها و ما يتبع ذلك من عدد السنين و الحساب، أى أبعاد التاريخ و سائر معادلات الرياضة و العلم و الأخلاق». و أول شىء نواجهه فى عصرنا، عصر العقول الألكترونية، إن التفصيل فيه يقوم على تفصيل مقادير معينة أو إحصاءات محدّدة لتقييم الاحتياجات وفق خطة مقررة أو خطة للمستقبل القريب أو البعيد، و لكن هذه الخطة أو تلك- كما يقول- لا- يمكن أن تكون يقينية فى حكمها لوقائع الحياة، حيث التغيرات المجهولة تواجه التخطيط بما لم يكن بالحسبان «أما القرآن فهو مفصّل الكلمات تفصيلا مطلقا يحكم أحوال الحياة كلها جملة و تفصيلا، حكما مطلقا مهما تختلف أحوال الحياة»، و هو يقصد بالتفصيل المطلق لكلمات القرآن «أن كل كلمة من كلمات القرآن، و هى تتعدد مواقعها فى آياتها، فهى مفصلة تفصيلا مطلقا، إذ هى ثابتة فى بنائها القولى، ثابتة فى حقيقتها المرتبطة بها وحدها». و هو يرى «۲» «إن لكل موقع قرآنى، بكل كلمة قرآنية، حقيقة خاصة به فى موقع الكلمة منه حقيقة لا تتكرر إطلاقا، فى أى موقع آخر جاءت به الكلمة نفسها، على أن التطابق القرآنى بين كلماته و واقعها المادى لا- يأتى وصفا عدديا و موقعيا فحسب، و لكنها فى القرآن حكما و أحكاما، و فى الحياة كلها خضوعا لحكم كتاب اللّه و تفصيلا لأحوال الحياة، و هى تهتدى بنور كلمات اللّه» أى أن القرآن يحكم الحياة بكلماته و لا يصفها فقط. إن الحياة تتكاثر تكاثرا كميا لتلبية حاجاتها، كما فطرها اللّه، و أن اختلاف الأعمال و اختلاف الأشياء علامات للوعى البشرى حتى يدرك عظمة خالقه الذى جعل من المختلفات متفقات على غير قدره من المختلفات أن تكون على العكس منها تماما متفقات، و لو كانت كلمات القرآن ككلمات البشر لاحتاجت فى وصفها لهذه الاختلافات أن تتنوّع و تختلف و تتعدد، و بذلك تفقد صفة الثبات و اليقين، أما كلمات (_____ ۱) القرآن تفسير الكون و الحياة- محمّد العفيفى، ص ۲۰. (۲) المصدر السابق، ص ۲۲. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۷۸ القرآن فتفصيلها يعنى ثباتها، و كل ثبات هو يقين، أى وصول إلى حل ثابت و نهائى لكل معضلة. فالقرآن ثابت الكلمات مثبّت لسائر الأحوال المختلفة فى الحياة بكلماته الثابتة، و هى ثابتة لأنها لا تتكرر، و هى لا تتكرر لأنها مفصّلة تفصيلا مطلقا «۱» «فمهما تتغير الحياة و مهما يكتشف الناس من العلوم، فالقرآن يحكم حكما ماديا أخلاقيا- ما- على كل شىء بهذا التفصيل المعجز الذى حققه اللّه لكلماته، و هو تصنيف مطلق

الدّقة و الإصابة»، و يصف المؤلف هذا الثبات بقوله «۲»: «و الثبات الصحيح فى الحياة هو التطابق بين كلمات القرآن، و بين تغيرات الحياة و مكتشفات العلم»، فليس عجيبا بعد ذلك أن يكون القرآن سابقا بما كشف عنه من العلم قبل اكتشافنا للكثير منه، و قبل ما نعلم فى المستقبل، فندرك أن القرآن سابق بالحق أبدا، و يعتقد المؤلف أن «هذه هى معجزة التكوين الفذ المعجز لعلاقات الكلمات القرآنية فيما بينها و أحكام هذه الكلمات القرآنية فى حكمها للوقائع التى تكوّن الحياة فى جملتها و تفصيلها»، و يفترض المؤلف، دلالة على إعجاز القرآن، أنه لو حاول أى مؤلف لكتاب أن يؤلف كتابا فيه إحصاء لعدد الكلمات التى يتكون منها فلا بد أن تكون كل كلمة ترد فيه إما مرة واحدة أو أكثر، و لن يجرى أحد إحصاء مثل هذا لأن العلم الذى فيه علم احتمالى و يحتمل الخطأ، و حتى و لو كانت فيه حقائق العلوم المعروفة فإنها قد تتطور و تتغير، و بالتالى فإن أى إحصاء أو تبويب من هذا النوع إنما هو شىء لا يجرؤ عليه أحد، لأنّ المقصود من هذا الإحصاء هو التعبير عن مقولات فكرية عملية حقيقية لكل مادة لغوية يعبر عنها لفظ من الألفاظ، و فى علاقاتها مع غيرها، ثم إنها تدل على واقع الحياة المقابل لهذه المقولة، أما السبب فلأن مثل هذا الكتاب سيكون جزءا من الحياة هى حقيقتها، أما الألفاظ و المقولات التى لا تجد رصيدها فى الواقع فهى من الأوهام، لأن أى كلمة حقيقية تعنى التطابق بين أى شىء فى الحياة و أى شىء آخر على نحو يتيح شيئا صحيحا ينفع الحياة و الأحياء، و هكذا يصل المؤلف إلى القول: «إن الناس جميعا لا يمكنهم أن يؤلّفوا كتابا من أى نوع تنطبق عليه هذه الشروط القاسية أو كل الشروط المستحيلة»، و يبرّر ذلك بقوله: «لأن صلة و عينا بالحياة كلها، صلة احتمالات و تغيرات و مفاجآت و انقطاع عن العلم الحقيقى». و هكذا يصل المؤلف إلى القول بأنه «۳» «فى العالم كله كتاب واحد، قدم للناس جميعا حقائق العلم، قبل أن تثبت فى معارك العلاقات بين الوعى البشرى و بين مادة

(_____ ۱) القرآن تفسير الكون و الحياة- محمّد العفيفى، ص ۲۵. (۲) المصدر السابق، ص ۲۸. (۳) المصدر السابق، ص ۳۹- ۴۰. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۷۹

الكون، ذلكم هو القرآن»، و لذا «۱» «فإن عقلاء العالم كله ليعجبون كيف يكون فى عالم الناس (القرآن) و لا يجعلونه قبلتهم جميعا لفهم الحياة و تفسيرها، و معرفة الحقيقة و العمل بها». إن الكتاب الذى يحق له أن يحكم العالم، لا بد أن يتّصف بأنه ليس بحاجة إلى تعديل أو إضافة لأن أحكامه يقينية، بمعنى أن كل علاقة يعقدها بينه و بين الحياة، لا بد أن تكون علاقة تخضع كل تجارب الناس، و كل علاقاتهم بالحياة للفوز المبين المعقود على نواصى كلماته، فما بالنا إذا ثبت، بالدليل القاطع، مع ذلك كله أن كلمات القرآن حقائق ثابتة لها وقائعها فى الحياة كلها فيما يتعلق بالنصوص التى تدور حول الحياة الدنيا، إذ حقائق الحياة هى وسائل إيضاح لكلمات القرآن، و ما وسائل الإيضاح هذه إلّا ... إن كلمات القرآن تحكم الحياة الحقيقية، و لا تحكم ظروفا محددة لدرس من الدروس، أو عبرة من العبر التى تنتهى بلحظة إلقائها. إن الحياة متصلة و مفصلة، و كلام اللّه متصل و مفصل، و هو يهيمن باتصاله و تفصيله على اتصال الحياة و تفصيلها. كلمات القرآن، كما سنتبين حقيقتها المعجزة فى هذا الشأن بعون اللّه، تنفرد بمعجزة عظمى لا نظير لها فى أى ألفاظ فى أى كلام، و صدق اللّه العظيم وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [النمل/ ۹۳]. و يشبّه المؤلف عمله بعمل الفيلسوف البريطانى برتراند رسل حينما حاول أن يصنع لغة رياضية خاصة تعتمد الرقم و العدد لتحكم وقائع الحياة حكما عدديا، ثم حكما وصفيا أخلاقيا جدليا عمليا، و لكنه فشل بذلك، لأن مدار بحثه كان لغة البشر و فكر البشر و علم البشر، و لو بحث هذا بالقرآن لوجده، كما فعل المؤلف نفسه بهذه الكلمات مع الاختلاف الظاهر بالشكل، و ينتهى هذا الفصل بالتعميم التالى الذى يسميه المؤلف الحقيقة الكبرى «۲» «إن كلمات القرآن أكثر واقعية- و أعز حقيقة- من مصطلحات الحقائق العلمية الثابتة، و لا نقول الفروض أو النظريات. إن الكلمة القرآنية (آية)، و معناها العلاقة و الدلالة، قد وحّدت فى مدلولها بين الآية القرآنية و بين الآلة المحسّة فى الوقائع المادية فى الحياة، على أساس أن مدلول كلمة الآية هو الوسيط بين علاقات الأشياء بحقائقها النسبية و الحقيقة الكلية المطلقة»، بل إن هذا التطابق بين الكلمة القرآنية و الحياة يعتبره المؤلف آية بنفسها من اللّه «و كل من الكلمة القرآنية و واقعها فى الحياة بينهما علاقة حكم للقرآن، و خضوع فى واقع الحياة

(_____ ۱) القرآن تفسیر الکون و الحیاة-

محمّد العفیفی، ص ۴۴- ۴۶. (۲) المصدر السابق، ص ۴۸، ۴۹. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۸۰ یبینان معا، إن هذه العلاقة نفسها آیة من آیات اللّه»، «فالعلم کله، کما یقول المؤلف، بحاجة إلی هذا الاکتشاف الضخم فی کلمات القرآن، لأنها تحقق ذلک کله، و تعطی لکل مرحلة منه حقها الواضح الذی یربط بین المادة و الأخلاق ربطا عضویا، کما حدد القرآن لکل کلمة من کلماته قیمة یقینیة، هی أعز من حقائق العلم التطبیقیة نفسها». بهذا المنهج، یبدأ المؤلف تطبیق تفسیره للقرآن باعتباره هو نفسه تفسیرا للکون و الحیاة، و یعتبر أن هذه الدراسة، فی مفردات القرآن و کلماته، قد حاولها العلماء القدماء حین أحصوا کلمات القرآن، و أحصوا حروفه و لکنهم لم یعمدوا إلی التدبر العمیق فی العلاقات الواقعیة التی هی متحققة بین کل کلمة من کلمات القرآن و بین أسس الحقیقة علی إطلاقها و نهایاتها من أفکار الناس و أعمالهم ... أما الضرورة التی تستدعی أن تکون الحاجة إلی کلمات غیر بشریة للتعبیر عن الحقیقة، فیرجعها المؤلف إلی أن الإنسان نفسه واقع فی الحیاة التی تخضع للتغییر و التضاد و الحرکة، فهو لیس فوق متناقضاتها لکی یستطیع أن یحکم علیها من خلال وعی بشری خاضع لها أساسا، و یربط المؤلف هذه الضرورة للکلام غیر البشری بالحاجة الأساسیة التی وقع العلم المعاصر بها، و هو یبحث عن لغة فکریة علمیة سدیدة، و یستشهد بآراء بعض المفکرین علی ذلک، و هو یعتبر أن القرآن هو المعجزة الباهرة التی تحل هذه المعضلة حلا- لا یمکن أن یتم من أی طریق آخر. إن العالم مملوء بالکلمات المبهمة و الأخطاء اللفظیة حتی تحولت الفلسفة إلی ضرب من الأدب، فتحول العالم إلی لغة الریاضیات کحل لهذه الإشکالات و المبهمات و سوء الفهم، و لکن لغة الریاضیات تعد و تحسب و لا تشخّص و تصف، و لا تحقق وجودا لغویا حیا متصلا بتغیرات الحیاة و تضادها و اتصالها، فهی تعجز عن التعبیر عن ذلک. إن تکاثر الحیاة و مفرداتها و اختلافاتها تستدعی لغة أو کلمات تناسبها بعددها لکی تصفها، و هکذا کلما تکثرت حاجات الحیاة تکثرت اللغة أو الکلمات الدالة علیها، و لما کانت تغیرات الحیاة لا نهائیة و غیر محدودة و لا- یمکن الوصول إلی کلمات غیر محدودة و لا نهائیة، لذا وجب أن یکون هناک من یجمع کل تناقضات الحیاة و یعلو علیها، و لا یجعلها مقابلة لألفاظ أو کلمات اللغة، و إنما أیضا حاکما علیها بالحقیقة، تلک اللغة و الکلمات هی لغة القرآن و کلماته غیر البشریة، لذا نری المؤلف یؤکد علی أن «۱» «الحق هو ظهیر للکلمة، فإن عبدنا الحقّ

(_____ ۱) القرآن تفسیر الکون و الحیاة-

محمّد العفیفی، ص ۷۶. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۸۱ صدقت کلماتنا، و إن أخضعنا کلماتنا لکلمات اللّه فزنا بالعلم کله و بالنجاة من الشک و الریب و بحسن المسیرة فی الحیاة إلی مصیرنا الذی حتّمه الحق سبحانه»، و یقول «۱» «إن سائر قوانین المادة، و قوانین علاقاتنا البشریة بها مذخور هاهنا، فالکلمة القرآنیة لیست کلمة تقال کأی کلمة و لکنها حشد للحیاة، خاضعة لکلمات اللّه خضوع عبادة للّه»، إن اللّه هو الذی یمنحنا مصادر الأفکار و مواردها، فکلماتنا ما لم تخضع له، إذ نتفکر فی آیاته، فهی باطلة، و لیس فی وسعنا إذن أن نتکلم فنصدق. و یخلص المؤلف إلی القول «۲»: «إن الحیاة کلها لم تعرف کتابا واحدا عدا القرآن قد کشف الحقیقة الشاملة للحیاة لیکون هو، فی إحکام کلماته و فی تفصیلاتها، قد أحاطها بالحیاة، و حکمها حکما شاملا للمادة و الأخلاق جمیعا». علی أن للمؤلف رأیا لا یمکن تجاهله فی إیضاحنا لفهمه للقرآن و تفسیره، فهو، بناء علی نظریته فی الکلمة القرآنیة المعجزة، و تطبیقا لعنوان کتابه «القرآن تفسیر الکون و الحیاة» یجد، ضمن مفردات تحلیله لکلمة تفسیر و تأویل الواردة فی القرآن، أن القرآن لا یمکن أن یفسّره أحد مهما بلغ من العلم، و حتی الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم إنما بیّن القرآن بیانا و طبّقه عملیا و لم یفسّر القرآن أو یؤوله رغم أنه مؤید من اللّه بأنه وَ ما یَنْطِقُ عَنِ الْهَوی (۳) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْیٌ یُوحی [النجم/ ۳، ۴]، فکیف یشرح هذه الفکرة بمصطلحاته و صیاغاته اللغویة الخاصة؟. یعقد المؤلف فصلا تحت عنوان (أ فلا یتدبرون القرآن) یبدأ بسؤال (کیف نفسّر حیاتنا فی القرآن) لیصل إلی أن العلاقة لمّا کانت بین الإنسان، و شأنه الخضوع لکتاب اللّه، و بین القرآن، و شأنه حکم کل شیء بکلمات اللّه، لذا فمن أراد أن یفهم الحیاة أو یفسّرها فلن یتحقق له شیء من ذلک إلا بالقرآن، فهذا محتاج إلی ربط أنفسنا بالقرآن کلّما تدبرنا

القرآن، ثم ليستنتج «۳» «بأن القرآن حقا هو تفسير الحياة، و لا يمكن أن يكون للحياة تفسير غير القرآن، و المقصود بالحياة الكون و الحياة معا بل و الوجود حاضره و غائبه». إنه ينعى على التعبير العملى للحياة عجزه عن متابعة متغيراتها و مفاجآتها فى كل لحظة «۴» «إذا كانت الحياة الإنسانية كلها تبحث عن لغة للتعبير فلا تجد لأن متغيرات الحياة تفاجئنا كل لحظة بما لم يكن فى الحسبان. إن القرآن هو التفسير، التفسير الوحيد اليقين المطلق لكل شىء للحياة فى شمولها و تفصيلها».

(_____ ۱) القرآن تفسير الكون و الحياة-

محمّد العفيفى، ص ۷۸. (۲) المصدر السابق، ص ۸۶. (۳) المصدر السابق، ص ۲۸۶. (۴) المصدر السابق، ص ۲۸۷. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۲ و هكذا حينما يستشهد بقول القرآن وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً [الفرقان/ ۳۳] نراه يعلق على كلمة تَفْسِيراً «بأنها جاءت مرة واحدة دالة على أن كلام اللّه هو الذى يفسّر كل ما عداه تفسيرا، هو الحق فليس بعد الحق إلا الضلال، فمهما يحاول الناس أن يصيبوا الحق فى تفسيرهم أمرا من أمور الحياة، فربما تيسّر لهم شىء من صواب الرأى أو القول، و لكنهم لن يعلموا يقينا أنهم أصابوا أحسن الحديث و أحسن العمل، كمن يسافر من بلد إلى آخر، فلعلّه يختار مكانا من البلد وصل إليه و غيره أحسن منه و هو لا يدرى من ذلك شيئا، بل هو لا يدرى وجه الإصابة فيما أصاب، و اليقين لا مصدر له إلا اللّه وحده لا شريك له»، و يستشهد بحديث الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم (من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)، و يشرحه بقوله «۱»: «إن الأصل فى القرآن أنه هو اليقين، فلا يكافئه فى القول فيه إلا اليقين، و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هو المؤيد باليقين، فكان كلامه عن القرآن و عمله به هى الصدور الكامل عن الوحى، و كان ما عدا ذلك من القول بالرأى باطلا لأنه إن صادف وجه الحق، و الحق بكل شىء محيط، فليس يغنى ذلك من اليقين بالحق و وضوحه فى وعى القائلين بالرأى، حيث لا يغنيهم أن يصلوا إلى الحق اتفاقا لا يقينا ظاهرا فى الاعتقاد الذى يبين العمل و يحققه تحقيقا كاملا فى الضمير، فضلا عن سائر الجوارح، حيث هذا الظهور فى الفهم هو طريق التواصى بالحق و التواصى بالصبر». إن المؤلف يرى أن الآية السابقة تدل دلالة واضحة على أن القرآن هو الذى يفسّر و ليس هو الذى يفسّر، و يبنى رأيه على أنه ليس من شأننا، نحن البشر العاديين، بعد ذلك أن نقول إن أحدا من الناس قد فسّر القرآن، فإذا القرآن مفسّر و ليس مفسّرا كما بيّن لنا القرآن، و كما حقق لنا التفصيل المطلق لكلمات اللّه تعالى، و قد استثنى مقام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من هذا الحكم حيث هو المبلّغ، و هو المؤدى للأمانة، فهو المبيّن للبيان القرآنى، و بيان البيان هو التبليغ و ليس التفسير. أما كلمة التأويل و التى يعتبرها المؤلف أدق تعبيرا عن القرآن من كلمة التفسير، فهو أيضا شىء لا يقدر عليه أحد إلا اللّه، و يكون التسليم بالنص القرآنى، حسب وروده، هو البديل الوحيد للإنسان لكى يتلقى العلم الإلهى «فالتأويل هو عدم القدرة البشرية على التأويل، و معرفة الناس ذلك هو وضوح خضوعهم للحق سبحانه، و هذا هو التسليم بحدود الإنسان و إقامة حدود اللّه فى النفس و الضمير و الفكر، و المعادل العملى لهذه الحقيقة هى تلمذة

(_____ ۱) القرآن تفسير الكون و الحياة-

محمّد العفيفى، ص ۲۷۵. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۳ المؤمنين للقرآن تلمذة كاملة شاملة متصلة، فالمؤمن لا يدخل على القرآن برأيه و إنما يدخل عليه متأدّبا طالبا متتلمذا عالما بعجزه عن التأويل، و هذا هو أقوى أسباب العلم»، و أخيرا يصل إلى التعميم التالى لكل ما تقدم فيقول «۱»: «فلسنا إذن من يفسّر القرآن أو يؤوله، و إن كان للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم شرف بيانه، كما هو ظاهر فى آياته البيّنات، و تأويله فى حدود العمل به، إذ العمل نوع من أنواع التأويل، و مقام الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم منه هو مقام الأسوة الحسنة، و مقامنا نحن مقام التلقّى و الأخذ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مع الوعى بأن تأويل القرآن على أساس شامل متصل بأمور الغيب جميعا إنما هو من أمر اللّه وحده، و لا سبيل لنا إلى ذلك إلا بالإيمان». و مع أنه يعود ليستثنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من ذلك على أساس أنه قد يكون أن اللّه سبحانه قد أطلعه على تأويل من تآويل الغيب و لم يأمر ببيانه ليلة أسرى به و عرج به إلى السماوات العلى، إلّا أنّه يؤكد على أن ظاهر التأويل يدلّنا على أن تأويل الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم للقرآن

كان بالنسبة العملية و القولية أى تحقيق القرآن بالعبادات أنه يبنى موقفه على قوله تعالى: إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (۱۷) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (۱۸) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ [القيامة/ ۱۷- ۱۹] فيقول بأن اللّه وحده هو الذى بيّن كلامه و الرّسول الأعظم صلوات اللّه عليه قد بلّغ الرسالة، و أدّى الأمانة بيانا للبيان لا- بيانا لشيء محتاج لبيان، و إننا لنقرأ فى سورة الطلاق قوله تعالى رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ [الطلاق/ ۱۱]، كما نجد فى سورة البقرة «۲» وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ ما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ [البقرة/ ۹۹]، أما دور الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى بيان القرآن للناس، كما يقول المؤلّف، فيكون فى طريقين: «أحدهما: متصل ببيان بيان القرآن ذاته، و ذلك من قوله تعالى، كما نجده فى سورة النّحل وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [النحل/ ۴۴]، فكون القرآن هو الذكر، فهو بيان واضح يحتاجه التذكّر الإنسانى ليعقد بينه و بين كل شيء العلاقة الصحيحة التى يتمّ بها الوعى بكل شيء، و الفعل المضارع يَتَفَكَّرُونَ يبيّن لنا الحالة الآنية بين الإنسان و موضوعات تفكّره و تذكّره. و ثانيهما: هو بيان حقائق الحياة الخارجية، كما يبيّنها البيان القرآنى، و كما يبلّغ ذلك كلّه الرسول صلوات اللّه عليه، فذلك ما نجده فى الآية الرابعة و الستّين من

(_____ ۱) القرآن تفسير الكون و الحياة- محمّد العفيفى، ص ۲۷۹. (۲) المصدر السابق، ص ۲۸۲. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۴ سورة النحل أيضا وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [النحل/ ۶۴]. فالذى اختلفوا فيه هو أساليب تفكّرهم، و أساليب فهمهم لحقائق الأشياء، حيث بيّن لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن الحقّ جلّ و علا هو وحده ربّ كل شيء، و هذا بيان قرآنى ظاهر، فعمل الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم هو بيان البيان». و هكذا يصل المؤلّف إلى ختام هذا القول بالتأكيد الواضح على أن كلمة التفسير فى إطلاقها على القرآن على أساس أن يكون الناس هم الذين يفسّرون القرآن شيء غير صحيح، أما من استطاع أن يتدبّر القرآن فليفعل على أن لا يدّعى أنّه يفسر كلاما محتاجا لتفسير، و إنما على أساس أن القرآن هو المفسّر للحياة و الأحياء، و أن من يتدبّر القرآن من النّاس فهو إنما يفسّر الناس القرآن و هم منه بهذا المكان. إذن، فالمؤلّف يطرح كلمة التدبّر بدل التفسير و التأويل، و يعتبر أن مقام رسول اللّه عليه الصّلاة و السّلام هو قمة التدبّر و مقام الكافة هو التدبّر، كما يناقش المؤلف ابن تيمية فى قوله بأن السنّة شارحة للقرآن، و يناقش الأحاديث النبوية مثل (ألا إنى أوتيت القرآن و مثله معه)، و يعتبر التطبيق العملى للقرآن هو معناها، و يعتقد أن القرآن هو الذى يهيمن على السنّة و يفسّرها و ليس العكس، كما هو مشهور عند المفسّرين و الأصوليين، كما يرد على معنى الحديث (اللهم فقّهه فى الدين و علّمه التأويل) فى حق ابن عباس، فيورد اختلاف الرواة على كلمة التأويل حيث وردت مرّة، و وردت بدلها الحكمة مرة أخرى ليصل إلى القول: «إن كلمة تأويل فى حديثه صلّى اللّه عليه و سلّم تعنى كلمة ما يؤول إليه أمر الحياة و الأحياء جميعا، إذ يحقّ اللّه تعالى الحقّ بكلماته»، و يعتقد أن المقصود بقوله تعالى هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ [الأعراف/ ۵۳] هو حالنا فى الدنيا، حيث نحن بانتظار دائب لما سبق به القرآن من أنباء الغيب، فتأويله متحقق فى الدنيا على توالى اكتشافات العلوم، و فى قمّة هذه الاكتشافات يوم يأتى تأويله، أى يأتى يوم القيامة، أما كلمة التأويل فى الآية الأخرى وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ [آل عمران/ ۷]، أما الراسخون فى العلم فعلمهم هو تسليمهم بالجهد الإنسانى، و بذلك يصبح الإيمان هو أعلى درجات العلم غير المباشر، أى العلم المتصل بالإيمان بالحق. فهاهنا يتحقق العلم بعدم العلم البشرى، و يتحقّق الإيمان بالعلم الإلهى وَ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ [آل عمران/ ۷] و قولهم آمَنَّا بِهِ هو اتصالهم بعلم اللّه، فهم بالعبادة الخالصة لربّهم سبحانه بين عبادتين: عبادة بالفكر، فهم الراسخون فى العلم، و عبادة بالعمل، فهم فى تطبيق متواصل للعلم الذى لا يحصل بالاكتساب و إنما يحصل بالاقتراب وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ [العلق/ ۱۹]، و حينما يسأل هل بالإمكان الاستفادة الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۵ من العلوم، كالطب و الفلك و علوم الذرّة و الرياضيّات و غيرها، كوسائل لتدبّرنا للقرآن؟ يجيب أن الاحتياط الواجب اتخاذه هنا هو أن يكون المنطلق من كون هذه العلوم هى فى مكان خضوعها للقرآن و خضوع كل شيء لأحكام القرآن «إننا مثلا حين نصنع الصواريخ، و حين نصعد للقمر ننظر للإنجاز فى ذاته و المنجزات فى ذاتها، و لا ندرك أن القرآن وصّل كل شيء بكل شيء فالأخلاق التى تحدّد لنا قيمة المنجزات و طريق عملنا بها إنما

هى فى القرآن. إن القرآن يحكم القوانين الأساسية لحركة الفصل و الوصل فى أعمق أعماق النفس و الحياة، القرآن يحكم حركة الحياة التى نجهل مصيرنا فى غاياتها البعيدة» و المؤلّف يستغفر اللّه العظيم حينما يقال له إن العلم البشرى من جهة، و القرآن من جهة يكمل بعضهم بعضا و يجيب «۱»: «القرآن فى الحكم لأنه كلام اللّه فهو (الآمر) و حياتنا فى الخضوع لأنّها من خلق اللّه فهى فى (الخلق)، يقول اللّه تعالى أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ [الأعراف/ ۵۴]، فحقيقة ذلك أن أى ابتداع فى العلوم إنما هو الخضوع القهرى لكلام اللّه، فإن عرف الناس حسن الأداء للمنتجات فهم متصلون فكرا و عملا بالحياة، فهذا الاتصال هو الحق و اللّه يحقّ الحقّ بكلماته». و لعلّ من أخطر ما جاء به هو قوله بأن القرآن هو الذى يحدّد اللغة و ليست اللغة هى التى تحدّد القرآن، فى تعليقه على تفسير ابن تيمية لكلمة الصمد، و التى قال بأن معناها اللغوى (غير الأجوف) و يقول «۲»: «أستغفر اللّه العظيم، إن اللّه تعالى ليس كمثله شىء و الأشياء منها الأجوف و منها المصمد، و هذه العثرة الكبرى من عثرات الكرام قد أدّى إليها الاعتماد على اللغة، و القرآن هو الذى يحدّد اللغة، و ليست اللغة هى التى تحدّد القرآن، أ لم نتدبر معا من قبل قوله تعالى وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا [الرعد/ ۳۷]، فالقرآن، إذن، كلماته هى أحكامه، و الكلمة من كلمات اللغة إذا كانت قد جاءت فى القرآن فهى بموقعها من القرآن، و بصيغتها القرآنية إنما هى حكم يزيدنا بيانا كلما ازددنا توسعا فى التدبّر، و نحن فى التدبّر خاضعون بلغتنا و حياتنا كلها لهذه الأحكام القرآنية (_____». ۱) القرآن تفسير الكون و الحياة- محمّد العفيفى، ص ۳۱۱. (۲) المصدر السابق، ص ۳۱۵. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۶

الإعجاز العلمى فى الإسراء و المعراج

اشارة

الإعجاز العلمى فى الإسراء و المعراج حينما نتحدّث عن معجزة الإسراء و المعراج فى إطار المعجزات العلمية الخارقة لجميع العصور، ما جاء منها و ما لم يجىء، فإنما لكى ندلّل بهذه المعجزة على استمرارية إعجاز نبوة خاتم النبيين من خلال القرآن الكريم، و إذا كانت أكثر المعجزات العلمية المذكورة فى القرآن قد أصبحت الآن معلومة لدى الكثير من العلماء فى الفيزياء و الكيمياء و الفلك و البيولوجيا ... إلخ، و قد أصبح الإيمان من خلالها بالقرآن، و بصدق نبوة النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم واضحة و ساطعة، إلّا أن القيمة الأكبر فى المعجزة القرآنية فى الجانب العلمى بقيت، و ستبقى أبد الدهر، مما يستحيل تفسيره مهما تقدّمت العلوم و تطورت، و مهما اكتشف من حقائق الكون و الإنسان. إن العلم تحدّث عن ثلاثة أغطية للجنين، أو ثلاثة حجابات فى بطن أمّه، و اكتشفها حديثا، و كان القرآن قد سبقه فى الحديث عن الظلمات الثلاث، كما أن العلم تحدّث عن وحدة الكون، أى أن السماء و الأرض كانتا واحدة و انفجرت و لا زالت تتمدّد فى عملية الانفجار، و كان القرآن قد قال أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما [الأنبياء/ ۳۰]، و كثير من المعجزات العلمية المكتشفة حديثا، و التى سبق القرآن فيها العلوم كلّها فأشار إليها، إلّا أن معجزة الإسراء و المعراج تبقى حتى اليوم قائمة تذكّر بإعجاز خارق لا- يتكرّر، و لا- يستطيع أحد أن يدخله فى مفردات الفيزياء و الكيمياء و الكون، أى إنه باق على إعجازه كما كان حينما أرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى قريش، فهو كما كان معجزا لهم لا زال معجزا لنا حتى الآن مع كل التقدم العلمى على كافة المستويات. لقد اكتشف العلم الحديث الكون و أبعاده، و اكتشف الحياة و نشأتها عن الماء، و اكتشف كيفية حدوث الحمل و الجنين فى الأم، كما اكتشف الذرة بمفرداتها و الخلية الحية بأسرارها و الطبيعة و جيولوجيا الأرض، كما اكتشف حركة الكواكب و المجرّدات و الفضاء ... إلخ، و استطاع أن يصل إلى مفردات علمية سبقه القرآن بها منذ أربعة عشر قرنا، و لكنّه، بكل الأحوال، اكتشف هذا الآن و أصبح الإعجاز لا الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۷ ينصب إلّا على أن القرآن له السبق التاريخى فى هذا، و أنّه جاء عن طريق رجل أمّى لا يقرأ و لا يكتب، فى حين هو يفحم علماء القرن. إذن، ما دمنا قد فهمنا فى القرن

العشرين أسرار الحياة و الكون و الذّرّة، فلنا إعجازنا نحن أيضا بقدرتنا على هذا التطور و التقدّم، و بذلك أصبحت كثير من المعجزات العلمية- لا كلّها- فى القرآن مسلّما بها فى العلوم، فكيف أستطيع أن أدعو إلى الإسلام و القرآن بعد أن انكشفت معالم الحياة و الكون أمام الإنسان الجديد، فاستطاع أن يفهم الكثير، و حتى إذا ما قلت له إن هذا الإعجاز العلمى يدل على أن القرآن ليس من كلام البشر، فهو لا بد أن يكون من عند اللّه تعالى، و إذا ما صدّق المستمع هذا القول فإنه سيبقى يطالب بدليل إعجازى مستقبلى مستحيل حتى على نظرياته العلمية و اكتشافاته الجديدة أن تصل إليه، و هنا يأتى إعجاز الإسراء و المعراج كدليل لاستحالة كل ما جاء به على قدرة البشر مهما توصّلوا إلى تقدم و تقنية. و الإسراء و المعراج ليس آية تقرأ فى القرآن ثم نحاول أن نبنى عليها افتراضاتنا العلمية، أى إنّها ليست خبرا و إنما حدثا واقعيا وقع للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و عاشه بكيانه المادى الطبيعى، فهو يتجاوز الإخبار بالحقائق العلمية المحتملة إلى الحوادث الواقعية المعاشة من قبل الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى رحلته المباركة، فإذا ما قال القرآن الكريم وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ [الأنبياء/ ۳۰] أو قال أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما [الأنبياء/ ۳۰] فهذا يمكن طرحه كفرضية علمية، و البرهنة عليه من خلال المختبرات و المجاهر و التلسكوبات و نظريات الفيزياء الذرية و الكونية، و لكن حينما يقول القرآن الكريم إن محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم انتقل عبر (دابة) من مكة إلى القدس، و من القدس عبر المعراج إلى السماوات العلى، فهذا لا يبقى تحت التجربة العلمية لأنه يتجاوز كل الفرضية العلمية المعروفة حتى اليوم إلى ما هو أبعد من خيال أى عالم أو أديب، فكيف يتحقّق ماديا و طبيعيا؟ بل إنه قد يتناقض مع مفردات العلوم الحديثة متجاوزا لها إلى أبعد مما يتصور الخيال. فإذا كانت العلوم الحديثة لا- تستطيع أن تنقل الإنسان إلى القمر إلّا عبر التكنلوجيا المعقدة و أجهزة التنفس الصناعية، فكيف بها إذا واجهت تحدّى اختراق السماوات العلى كلها فى ليلة واحدة؟ و إذا ما رفض الإنسان أن يصدّق بمعجزة الإسراء و المعراج فسوف يجابه بمئات المعجزات العلمية التى تحقّقت اليوم قد أشار لها القرآن و حدّدها قبل ألف و أربعمائة سنة؟ فالذى يصدّق بمئات المعجزات العلمية، و التى ليس ثمة تجربة علمية سبقتها للدلالة عليها، و إنما هى آية من كلمات فقط جاء بها الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم و هو أمّى لا يقرأ و لا يكتب، هذا الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۸ الذى يصدّق بهذه المعجزات العلمية كلها، المكتشفة حتى الآن لا بدّ له أن يسلّم بأن القرآن هو من عند اللّه و ليس كلام البشر، و بالتالى فالذى يصدّق فى مئات النماذج العلمية، لما ذا أنكر عليه هذه المعجزة التى لم يصل علمى حتى الآن إليها؟ فلا بد أن أصدّق. و إذا ما سلّم بأن اللّه تعالى هو الذى تكلم بالقرآن- و هذا ما لا بد له منه- إذن فلا بد أن يصدّق أن الذى جاء به هو رسول من اللّه تعالى إلى البشرية، على السياق المعروف فى بعث الرسل أجمعين، و هكذا تكون القيمة الإيمانية للإنسان المعاصر، حينما يسلّم غيبا بما لم يثبت له علما، فيحوز درجة المؤمنين الأوائل الذين آمنوا بالقرآن فصاحة و بلاغة إعجازية، و لم يستطيعوا أن يصلوا إلى كل معانى القرآن العلمية، فأسلموا و آمنوا و لم يطلبوا من البرهان أكثر مما جاءهم و تحمّلته عقولهم. إذن، معجزة الإسراء و المعراج، بهذه الصورة الموصوفة بها، تبقى دليلا أكيدا على إعجاز القرآن و على استمرارية دعوة النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من خلال القرآن و شموليتها لكل الخلق، و تؤكّد أن خاتم النبيين لم يترك العالم دون معجزة حتى و هو قد فارق الحياة، بل ترك لهم معجزة ناطقة تتكلّم بكل اللغات الإنسانية، و بوجوه متعدّدة تناسب كل عصر من العصور حتى قيام الساعة، و لغتها اليوم و وجهها هى العلوم و التّقدّم العلمى، فلو أرسل الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم اليوم إلى العالم لن تتغيّر مفردات كلماته، و لن يتغيّر القرآن الذى جاء به فهو قد جاء للناس كافة بشيرا و نذيرا و شاهدا على الجميع، و قد جاء قرآنه ليبقى الكتاب الذى فيه تبيان كل شىء، لأنه تعالى لم يفرّط فى الكتاب بشىء، و يدلّل كل يوم على صدقه و إعجازه، و قد أكّد، بأكثر من آية، أنّه يتحدّث لكل إنسان فى كل عصر على مدى الزمان كله و يعطيه دليله و حجّته سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت/ ۵۳] و قد تبيّن لنا اليوم أنّه الحق الأوحد فى كل جانب و فى كل مكان و زمان. على أن من ميزة هذه المعجزة أنّها جاءت كحادثة للرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم مما تعتبر به تعظيما له و تقديرا و تبجيلا، فلو كانت آية خبرية لكانت كالآيات الأخر التى تكتسب قيمتها من كونها فى القرآن و ليس للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم فيها إلّا ما له فى غيرها من آيات

القرآن، أما هذه المعجزة فهى قد حدثت له شخصيا و فرديا، و لما كانت هى أعظم المعجزات القرآنية علميا، كما نفهمها اليوم، فالرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم يكون له من هذه العظمة الإعجازية الحظ الأوفر و الموقع المتقدم. و هكذا نرى أن اللّه سبحانه و تعالى، حتى فى آيات الإعجاز العلمى التى بهرت العقول و الألباب، جعل لرسوله الكريم أفضلية كبيرة على جميع المعجزات الواردة الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۸۹ فى القرآن الكريم، و هذا ما جعل الشيخ أحمد محيى الدين العجوز يقول فى كتابه «معالم القرآن فى عوالم الأكوان» ما يلى .. «۱» «فأراد سبحانه أن يكون لنبيّه محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم الأسبقية فى كل تقدّم و انطلاق، فمهما تقدّم الناس فى علومهم، و مهما ترقّوا فى فنونهم، و مهما توصّلوا إليه فى أعمالهم من وسائل النقل و الأسفار، و مهما ابتكروا من صنعة لاجتياز الأبعاد و ارتقاء المعالى، فإنّه خصّ نبيّه محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم بأعظم من ذلك، برحلة أرضية أسرع، و رحلة سماوية أبلغ، فلا يكون لغيره تفوّق فى الانطلاق، و لا تميّز فى الارتقاء». إن معجزة الإسراء و المعراج حدثت قبل أربعة عشر قرنا، فما هى القيم المعنوية و الاعتبارية فيها؟ و كيف فهمت هذه المعجزة آنذاك؟ و كيف كانت المعانى التعظيمية للرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم من قبل ربّه سبحانه و تعالى تفهم من قبل أولئك البشر الذين كانت استحالتها المطلقة تساوى الإيمان المطلق بها، و التسليم بصدقها من قبل المؤمنين حقا حتى قيل إن الصدّيق أبا بكر سمّى صدّيقا لأنه أوّل من صدّق بها رغم استحالتها المطلقة فى الذهن البشرى الاعتيادى، و لكن إيمانه كان أقوى من مفردات الاستحالة الطبيعية التى طرحتها هذه المعجزة عليه، و بغضّ النظر عن معقوليتها من عدم معقوليتها، بل و عدم القدرة على البرهنة على إمكانها حتى كمعجزة؟ أما مضمون تفسيره لتصديقه فهى، كما جاءت الرواية التاريخية، من أن «۲» «رجالا من المشركين سعوا إليه فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنّه أسرى به إلى بيت المقدس؟ قال: و قد قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أ تصدّقه أنه ذهب إلى بيت المقدس و جاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إنى لاصدّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدّقه فى خبر السماء فى غدوة و روحة»، على أن البعض من ضعاف الإيمان من المسلمين ارتدّوا بعد حديث الإسراء لقلّة إيمانهم، و عدم قدرة عقولهم على مجرّد التصديق بالانتقال من مكّة إلى القدس و العودة فى ليلة واحدة، فكيف بخبر السماوات السبع و ما فوقهن؟. فما هو الإسراء و المعراج؟ و ما هى الآيات و الأحاديث الدالة عليه؟ و كيف فسّرها و فهمها الأقدمون قبلنا؟ يقول القاضى عياض، فى باب كرامة الإسراء، فى كتابه الشفا فى أحوال المصطفى «۳» «و من خصائصه صلّى اللّه عليه و سلّم قصة الإسراء و ما انطوت عليه من درجات الرفعة،

(_____ ۱) معالم القرآن فى عوالم الأكوان- أحمد محيى الدين العجوز ص ۱۵۵. (۲) محمّد- محمّد رشيد رضا، ص ۱۷۷. (۳) الشفا فى أحوال المصطفى، القاضى عياض، ج ۲، ص ۳۴۳. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۹۰ مما نبه عليه الكتاب العزيز و شرحته صحاح الأخبار، قال اللّه تعالى سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ .. [الإسراء/ ۱] الآية، و قال تعالى وَ النَّجْمِ إِذا هَوى [النجم/ ۱] إلى قوله لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى [النجم/ ۱۸] فلا خلاف بين المسلمين فى صحة الإسراء به صلّى اللّه عليه و سلّم، إذ هو نصّ القرآن، و جاءت بتفصيله و شرح عجائبه و خواص نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم فيه أحاديث كثيرة منتشرة». و ملخص حديث الإسراء و المعراج، كما أورده ابن قيّم الجوزية فى كتابه «زاد المعاد فى هدى خير العباد»، و الذى أخذه عن أدق الأحاديث، يقول «۱»: «ثم أسرى برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكبا على البراق، صحبه جبريل عليهما الصّلاة و السلام، فنزل هناك و صلّى بالأنبياء إماما و ربط البراق بحلقة باب المسجد ... ثم عرج به تلك الليلة من البيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففتح له فرأى هناك آدم أبا البشر فسلّم عليه فردّ عليه السّلام و رحّب به و أقرّ بنبوته، و أراه اللّه أرواح السعداء عن يمينه و أرواح الأشقياء عن يساره، ثم عرج به إلى السماء الثانية فاستفتح له فرأى يحيى بن زكريا و عيسى ابن مريم فلقيهما و سلّم عليهما فردّا عليه و رحّبا به و أقرّا بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثالثة فرأى يوسف فسلّم عليه و رحّب به و أقرّ بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس فسلّم عليه و رحّب به و أقرّ بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فرأى فيها هارون بن عمران فسلّم

علیه و رحّب به و أقر بنبوّته، ثم عرج به إلی السماء السادسة فلقی فیها موسی بن عمران فسلّم علیه و رحّب به و أقرّ بنبوته، فلما جاوزه بکی موسی فقیل له: ما یبکیک؟ فقال: أبکی لأن غلاما بعث بعدی یدخل الجنّة من أمّته أکثر مما یدخلها من أمّتی، ثم عرج به إلی السماء السابعة فلقی فیها إبراهیم فسلّم علیه و رحّب به و أقرّ بنبوته، ثم رفع إلی سدرة المنتهی، ثم رفع له البیت المعمور، ثم عرج به إلی الجبار جلّ جلاله، فدنا منه حتی کان قاب قوسین أو أدنی، فأوحی إلی عبده ما أوحی، و فرض علیه خمسین صلاة، فرجع حتی مرّ علی موسی فقال له: بم أمرت؟ قال: بخمسین صلاة، قال: إن أمّتک لا تطیق ذلک، ارجع إلی ربک فاسأله التخفیف لأمتک، فالتفت إلی جبریل کأنه یستشیره فی ذلک، فأشار أن نعم إن شئت. فعلا به جبریل حتی أتی به الجبار تبارک و تعالی و هو فی مکانه- و هذا لفظ البخاری فی بعض الطرق- فوضع عنه عشرا، ثم أنزل حتی مرّ

(۱) زاد المعاد فی هدی خیر العباد- ابن قیم الجوزیة، ج ۳، ص ۳۴- ۳۵. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۹۱ بموسی فأخبره فقال: ارجع إلی ربک فاسأله التخفیف، فلم یزل یتردّد بین موسی و بین اللّه عزّ و جلّ حتی جعلها خمسا، فأمره موسی بالرجوع و سؤال التخفیف، فقال: قد استحییت من ربی و لکن أرضی و أسلّم، فلما بعد نادی مناد: قد أمضیت فریضتی و خففت عن عبادی»، و لا شک أن هناک تفاصیل کثیرة فی الأحادیث الأخری لا حاجة لنا لروایتها هنا، لننتقل إلی التفسیرات.

۱- معجزة الإسراء و المعراج و تفسیرها لدی القدامی

۱- معجزة الإسراء و المعراج و تفسیرها لدی القدامی أ- التفسیر العقلی: لقد تحدّد نقاش الأقدمین من المفسرین و العلماء فی معجزة الإسراء و المعراج علی نقطتین أساسیتین و ما یتفرّع عنهما، و هما: هل کان الإسراء و المعراج بالروح و الجسد، أم کان بالروح فقط؟ و یخرج من هاتین النقطتین أن الإسراء و المعراج إذا کان بالروح أو بالمنام فلا إشکال فیه، أما إذا کان یقظة و بالروح و الجسد، فکیف یمکن تفسیر السرعة التی استخدمها الرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم فی انتقاله من مکة إلی بیت المقدس ثم إلی السماوات العلی؟ فالسرعة المعروفة لدیهم کانت لا- تتجاوز سرعة الحصان و الجمل، و هم یقطعون المسافة بین مکة و بیت المقدس بأربعین یوما، فکیف یستطیع الرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم أن ینتقل بساعات ما یستغرقونه هم بقطعه شهورا أو أیاما؟ أما لو عرفوا سعة الکون و حدوده البعیدة التی تقاس الآن بالسنین الضوئیة لکان إنکارهم أشدّ، لاستحالة هذا الانتقال بأی واسطة معروفة. إذن، کان علی الذین یقولون إن الإسراء و المعراج قد تمّ بالروح و الجسد و یقظة لا فی المنام، أن یبرهنوا أولا علی إمکانیة وجود سرعة خارقة فی الکون تتجاوز مفهومهم عن السرعة، ثم یبرهنوا، بعد ذلک، علی وقوع الإسراء و المعراج حقیقة فی جسد النبی و روحه عبر هذه الإمکانیة النظریة؟. أما أن الإسراء و المعراج کان بالروح و الجسد، فقد ذکر المفسّرون أنّه کان کذلک بدلیل قوله تعالی أَسْری بِعَبْدِهِ، فمسمی العبد هو للجسد و الروح و لیس للروح، کما أنّه لا حاجة لأن یقول اللّه تعالی فی بدء سورة الإسراء سُبْحانَ الَّذِی فالتسبیح إنما یکون للأمور العظیمة فقط، و لو کان بالروح لما کان معجزة للرسول صلّی اللّه علیه و سلّم، کما استدلّوا علی بذلک بقوله ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغی [النجم/ ۱۷] و البصر من آلات الجسد لا الروح، کذلک أن الحدیث النبوی یروی أن الإسراء کان عبر رکوب دابة البراق، و لو کان بالروح لما احتاج إلی دابة للانتقال، و استدلوا أیضا علی أنه لو کان بالروح، و مناما، لما احتاج أحد إلی تکذیبه، فالأحلام الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۹۲ لا- تحتاج وسائط مادیة خارقة، و لو کان بالروح لما قالت له أم هانی: لا تحدّث به قومک فیکذبونک، و لما ارتدّ بعض ضعاف الإیمان لأنهم علموا أنّه یقول بأنه انتقل بجسده و روحه، و لما سمّی الصدّیق صدّیقا للحدیث المذکور سابقا. إذن، فالأساس العقلانی و اللغوی و الاعتباری و مجریات الأحداث، بعد إخبار الرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم لهم و إنکارهم علیه، کان کل هذا مقنعا حقا لکی یجمع جمهور علماء المسلمین علی أن الإسراء و المعراج کان بالروح و الجسد حقیقة و یقظة لا مناما، أما مسألة السرعة الخارقة غیر المعروفة لدی القدماء فکانت هذه من أکبر القضایا التی کان علیهم أن یبرهنوا

عليها عقليا، و من باب الإمكانية المطلقة، لكى يمكن فهم حقيقة معجزة الإسراء و المعراج ضمن محدودية مفاهيمهم و أفكارهم آنذاك! و لعل أكثر الذين أولوا هذه المعجزة اهتماما بتفسيرها هو شيخ المفسرين الفخر الرازى فى تفسيره الكبير. و قد طرح الفخر الرازى المسألة معتمدا على منطق الجواز العقلى و الإمكانية المتاحة، يقول: «الحركة الواقعة فى السرعة إلى هذا الحد ممكنة فى نفسها و اللّه قادر على جميع الممكنات، و ذلك يدل على أن حصول الحركة فى هذا الحد من السرعة غير ممتنع»، و يبدأ بالبرهنة على إمكانية وجود هذه السرعة من خلال عدة براهين، بعضها يتعلّق بمفاهيم قديمة لعلم الفلك، و بعضها يتعلّق بالمنطق العقلى و الكلامى، و نلخص بعض هذه البراهين العقلية كما يلى «۱»: ۱) يرى أنه كما يستبعد فى العقل صعود الجسم الكثيف من مركز العالم إلى ما فوق العرش، كذلك يجب أن يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحانى من فوق العرش إلى مركز العالم، فإن كان القول بمعراج محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم فى الليلة الواحدة ممتنعا فى العقول، كان القول بنزول جبريل عليه الصلاة و السلام من العرش إلى مكة فى اللحظة الواحدة ممتنعا. ۲) إن أرباب الملل و النحل يسلّمون بوجود إبليس، و يسلّمون بأنّه هو الذى يتولى إلقاء الوسوسة فى قلوب بنى آدم، و يسلمون بأنه يمكنه الانتقال من المشرق إلى المغرب لأجل إلقاء الوساوس فى قلوب بنى آدم، فلمّا جوّزوا مثل هذه الحركة السريعة فى حق إبليس فلأن يسلّموا جواز مثلها فى حق أكابر الأنبياء كان أولى. ۳) يستشهد الرازى بأن الرياح كانت تسير بسليمان شهرا إلى المواضع البعيدة، كما (_____ ۱) تفسير الفخر الرازى- الفخر الرازى، ج ۲، ص ۱۴۸- ۱۵۰. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۹۳ ورد فى القرآن، و يستنتج أن الحسّ يدل على أن الرياح تنتقل عند شدة هبوبها من مكان إلى مكان فى غاية البعد فى اللحظة الواحدة، إذن فالحركة السريعة ممكنة بذاتها. ۴) إن القرآن يدل على أن من عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام فى مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ [النمل/ ۴۰] و إذا كان ممكنا فى حق بعض الناس علمنا أنّه فى نفسه ممكن الوجود. ۵) إن من الناس من يقول: الحيوان إنما يبصر المبصرات لأجل أن الشعاع يخرج من عينيه و يتصل بالمبصر، ثم إنّا إذا فتحنا العين و نظرنا إلى رجل رأيناه، فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا إلى رجل فى تلك اللحظة اللطيفة، و ذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السرعة من الممكنات لا من الممتنعات، فثبت، بهذه البراهين، أن حصول الحركة المنتهية فى السرعة إلى هذا الحد أمر ممكن الوجود فى نفسه. و هكذا يستنتج الرازى أن هذه الحركة لما كانت ممكنة فى نفسها وجب أن لا يكون حصولها فى جسد محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم ممتنعا، و الذى يدل عليه فى رأيه «أن الأجسام متماثلة فى تمام ماهيّاتها»، فلما صح حصول مثل هذه الحركة فى حق بعض الأجسام وجب إمكان حصولها فى سائر الأجسام، و ذلك يوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحركة فى جسد محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم أمر ممكن الوجود (فى نفسه)، و يضيف لهذا «ثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على جميع الممكنات، و ثبت أن حصول الحركة البالغة فى السرعة إلى هذا الحد فى جسد محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم ممكن، فوجب كونه تعالى قادرا عليه، و حينئذ يلزم من مجموع المقدمات أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود فى نفسه .. أقصى ما فى الباب أنه يبقى التعجّب إلّا أن هذا التعجّب غير مخصوص بهذا المقام، بل هو حاصل فى جميع المعجزات». و من أعجب التفسيرات التى ذكرها الآلوسى فى تفسيره عن مسألة المعراج، و ضمن إطار مذهب القدامى نفسه، ما ذكره و هو لا- يؤمن به حيث يقول «۱»: «و من العجائب ما سمعته عن الطائفة الكشفية، و العهدة على الراوى، أن للروح جسدين: جسد من عالم الغيب لطيف لا دخل للعناصر فيه، و جسد من عالم الشهادة كثيف مركّب من العناصر، (_____ ۱) روح المعانى- الآلوسى، ص ۱۰- ۱۱. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۹۴ و النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم حين عرج به ألقى كل عنصر من عناصر الجسد العنصرى فى كرته، فما وصل إلى فلك القمر حتى ألقى جميع العناصر، و لم يبق معه إلّا الجسد اللطيف فرقى به حيث شاء اللّه تعالى، ثم لما رجع عليه الصّلاة و السّلام رجع إليه ما ألقاه و اجتمع فيه ما تفرّق منه، و لعمرى إنه حديث خرافة لا مستند له شرعا و لا عقلا»،

على أنّه بعد أن يعجز عن التفسير الحقيقى لهذه المعجزة، و بعد أن يحدّد المسافات التى قطعها الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى إسرائه و معراجه يعود إلى رأى لطيف ليخرج به من هذا المأزق و للاعتراف بالعجز فيقول: «و قال بعضهم أمر المعراج أجلّ من أن يكيف، و ما ذا عسى يقال سوى إن المحب القادر الذى لا يعجزه شىء دعا حبيبه الذى خلقه من نوره إلى زيارته، و أرسل إليه من أرسل من خواص ملائكته، فكان جبريل هو الآخذ بركابه و ميكائيل هو الآخذ بزمام دابته إلى أن وصل إلى ما وصل إليه، ثم تولّى أمره سبحانه بما شاء حتى حصل، فأى مسافة تطول على ذلك الحبيب الرّبّانى، و أى جسم يمتنع عن الخرق لذلك الجسد النورانى، و من تأمّل فى العين و إحساسها بالقريب و البعيد، و لو كان فاقدها، و ذكر له حالها لأنكر ذلك إنكارا ما عليه من مزيد، و كذا فى غير ذلك من آثار قدرة اللّه تعالى الظاهرة فى الأنفس و الآفاق و الواقع على جلالة قدرها الاتفاق، لم يسعه إلّا تسليم ما نطقت به الآيات و صحت به الروايات». هكذا فسّر القدامى بعقولهم و منطقهم مسألة الإسراء و المعراج، فكيف فسّرها الصوفية بروحانياتهم؟. ب- التفسير الصوفى: لقد كان تركيز الصوفية، فى تفسيرهم للإسراء و المعراج، على الجانب التقديرى الاعتبارى للرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم أكثر من الجانب التفسيرى العقلى أو العلمى خاصة، و أن الاتجاه الصوفى، كما هو معروف، له اتجاه للإغراق فى الروحانيات و الأنوار الكشفية و ما شاكل ذلك، و مع هذا فقد كان عندهم من المعانى العميقة و النكات الدقيقة ما كان يعجز عنه أكابر الفلاسفة و المتكلمين و حتى علماء التفسير، لهذا نرى ابن عربى، كما ينقل عنه الشعرانى، يقول عن الإسراء و المعراج «۱»: «ما نقل الحق تعالى محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم من مكان إلى مكان إلّا ليريه ما خصّ تعالى به ذلك المكان من الآيات و العجائب الدالّة على قدرته تعالى، من حيث وصف خاص لا يعلم من اللّه تعالى إلّا بتلك الآية، كأنه تعالى يقول ما أسريت بعبدى إلّا لرؤية الآيات لا إلىّ،

(_____ ۱) جواهر البحار- النبهانى ج ۲، ص ۴۵، عن اليواقيت و الجواهر للشعرانى. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۹۵ لأنه لا يحوينى مكان، و نسبة الأمكنة إلى نسبة واحدة، و كيف أسرى بعبدى إلىّ و أنا معه حيث كان»، بل إن الصوفية يدلّلون على أن الإسراء بالجسد و الروح من خلال قولهم «إنه لما كان الاستواء على العرش تمدّحا للّه عزّ و جلّ، جعل اللّه لنبيّه صلّى اللّه عليه و سلّم كذلك نسبة على طريق التمدّح عليه، حيث كان العرش أعلى مقام ينتهى إليه من أسرى به من الرّسل عليهم الصلاة و السّلام، و هذا يدل على أن الإسراء كان بجسمه صلّى اللّه عليه و سلّم، و لو كان الإسراء رؤيا لما كان الإسراء و لا الوصول إلى هذا المقام تمدّحا و لا وقع من الأعراب فى حقّه إنكار على ذلك، لأن الرؤيا يصل الإنسان فيها إلى مرتبة رؤية اللّه تعالى، و هى أشرف الحالات، و مع ذلك فليس لها ذلك الموقع فى النفوس. إن كل إنسان بل كل حيوان له قوة الرؤيا، قال: و إنما قال صلّى اللّه عليه و سلّم، على سبيل التمدّح: حتى ظهرت لمستوى سمعت فيه صريف الأقلام. و أتى بحرف الغاية الذى هو حتى إشارة لما قلناه من أن منتهى السير بالقدم المحسوس العرش. و اللّه تعالى أعلم». و لما أراد الصوفية تفسير المعراج جاءوا بقول لطيف على لسان ابن عربى حينما قال «۱»: «و من كان مؤمنا لا ينكر المعراج و لكن وقوع السير المذكور فى مقدار ذلك الزمن اليسير يشكل عند العقل بحسب الظاهر، و أمّا عند التحقيق فلا إشكال، أ لا ترى أن فى الوجود الإنسانى شيئا لطيفا، أعنى القلب، يسير من المشرق إلى المغرب بل فى جميع العوالم فى آن واحد، و هو بديهى لا ينكره من له أدنى تمييز حتى البله و الصبيان، أ فلا يجوز أن تحصل تلك اللطافة لوجود النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بقدرة اللّه تعالى، فوقع ما وقع منه فى الزمن اليسير». هكذا فسّر القدماء، علماء و مفسّرون و متكلّمة و متصوفة، معجزة الإسراء و المعراج، و نرى اختلاف منطقهم عن منطق المعجزة العلمى القائم على منطق العلم الحديث الذى يتحدّث عن الطاقة و السرعة و الكتلة و نظرية النسبية، فكيف نظر علماء العصر الحديث لهذه المعجزة!؟.

۲- معجزة الإسراء و المعراج و التفسير العلمى الحديث

۲- معجزة الإسراء و المعراج و التفسير العلمى الحديث لا شك أن محاولة تفسير معجزة الإسراء و المعراج فى إطار العلوم الحديثة و

القـــوانين الفيزيائيـــة و الكيمياويـــة، و فى إطـــار علـــوم الفضـــاء و الفلـــك، هى محاولـــة قـــديمة

(_____ ۱) جواهر البحار- للنبهانى ج ۲، ص

۲۵۴، عن روح البيان للبروسوى. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۹۶ ترجع إلى عام ۱۹۳۵ م، أى قبل أن تطرح نظريات الإعجاز العلمى، و قبل أن يلتقى العلم بالقرآن هذا اللقاء الواسع الشامل، و هذا يعنى أن هذه المعجزة كانت بمقدار ما هى مثيرة للدهشة و التعجّب بمظاهر الإعجاز العديدة فيها، كانت بنفس المقدار تشغل انتباه العلماء و المفسّرين المعاصرين، و تقف أمامهم كتحدّ علمى لقدرات الطاقة الإنسانية العلمية فى العالم كله، و إذا ما تذكرنا أن بداية القرن العشرين كانت دعوات النهضة و التحرّر و رفض الخرافات و الأفكار القدرية اليائسة التى كانت سائدة فى تفاسير القرآن القديمة، و التى تريد من الإنسان أن يؤمن بكل ما قيل و يقال له ما دام واردا كحاشية على نص القرآن الكريم، مما طمس المعالم الحقيقية للهداية القرآنية وسط غبار التراكم فى اللامعقولات القديمة، إذا ما تذكّرنا كل هذا فلن نعجب أن تكون محاولة تفسير معجزة الإسراء و المعراج، على ضوء العلوم الحديثة و قوانينها المعاصرة، من المحاولات السبّاقة لطرح فكرة التفسير العلمى للقرآن حتى قبل أن يظهر هذا التفسير بالمساحة الكافية المقنعة آنذاك. لقد كان عام ۱۹۳۵ م هو عام صدور كتاب محمّد حسين هيكل عن «حياة محمّد»، الذى حاول فيه أن يكون قريبا جدا من العقلية العلمية السائدة آنذاك فى أوروبا، حتى أن كتابه هذا كان من أدق الكتب و أعمقها و أبعدها عن الغرابة و التغريب التى كانت محشوة بها كتب السيرة النبوية دون تمحيص علمى أو تاريخى، لذا فقد كان كتابه هذا من أوائل الكتب التى حاولت أن تقدم حياة الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم على ضوء العلوم الاجتماعية و التاريخ و علم النفس، و ما يسمى آنذاك علم الأرواح و التنويم المغناطيسى و الباراسيكولوجى ... إلخ، إضافة إلى بعض العلوم التطبيقية. فكيف فسّر هيكل معجزة الإسراء و المعراج التى وصف تفسيره لها بأنّه أول من فعل ذلك، و مدحه عليه المقدم للكتاب محمّد مصطفى المراغى؟ إن المنهج الذى أشار إليه محمّد مصطفى المراغى فى محاولة تفسير القرآن على ضوء العلم الحديث لهو جدير بالذكر حيث قال «۱»: «يقول بعض علماء الكلام إن الاطلاع على علم تشريح الأفلاك و علم تشريح الإنسان يدلّ أوضح دلالة على شمول العلم الإلهى لدقائق الوجود، و أنا أقرّر أيضا أن العلم و الكشف عن سنن الوجود و عجائبه سيكون نصير الدين، و سيقرب إلى العقل الإنسانى طريق فهم ما كان غامضا مبهما، و ما كان فوق طاقة العقل و إدراكه من قبل، مصداقا لقوله تعالى

(_____ ۱) حياة محمّد- محمّد حسين هيكل،

ص ۷. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۹۷ سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [فصلت/ ۵۳]، و الكهرباء، و ما نشأ عنها من المخترعات، قرّبت إلى العقل فهم إمكان تحوّل المادة إلى قوة، و تحوّل القوة إلى مادة، و علم استحضار الأرواح فسّر للناس شيئا كثيرا مما كانوا فيه يختلفون، و أعان على فهم تجرّد الروح و إمكان انفصالها، و فهم ما تستطيعه من السرعة فى طىّ الأبعاد، و قد انتفع الدكتور هيكل بشىء من هذا فى تقريب قصة الإسراء، فأتى بشىء طريف». إنّه فعلا شىء طريف، و لكنه ليس من العلم فى شىء فى ضوء ما توصلنا إليه اليوم. يقول هيكل واصفا محاولته تلك: «و لصاحب هذا الرأى، أكثر من غيره، أن يسأل عن حكمة الإسراء و المعراج ما هى؟ و هنا موضع الرأى الذى نريد أن نبديه و لا ندرى أسبقنا إليه أم لم نسبق؟». و هكذا يبدأ هيكل فصلا خاصا بعنوان «الإسراء و وحدة الوجود» جاء فيه ما يلى «۱» «ففى الإسراء و المعراج فى حياة محمّد الروحية معنى سام غاية السمو، معنى أكبر من هذا الذى يصوّرون، و الذى قد يشوب بعضه من خيال المتكلمة الخصب حظ غير قليل. فهذا الروح القوى قد اجتمعت فيه، فى ساعة الإسراء و المعراج، وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها، لم يقف أمام ذهن محمّد و روحه، فى تلك الساعة، حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب، التى تجعل حكمنا نحن فى الحياة نسبيا محدودا بحدود قوانا المحسّة و المدبّرة و العاقلة، تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم، و اجتمع الكون كله فى روحه فوعاه منذ أزله إلى أبده، و صوّره فى تطوّر وحدته إلى الكمال عن طريق الخير و الفضل و الجمال و

الحق فی مغالبتها و تغلّبها علی الشـر و النقص و القبح و الباطل بفضل من اللّه و مغفرۀ، و لیس یستطیع هذا السموّ إلّا قوۀ فوق ما تعرف الطبائع الإنسانیـۀ، فإذا جاء بعـد ذلک ممّن اتّبعوا محمّدا من عجز عن متابعته فی سـموّ فکرته و قوۀ إحاطته بوحدۀ الکون فی کماله، و فی جهـاده لبلوغ هـذا الکمـال، فلا عجب فی ذلک و لا عیب فیه، و الممتازون من الناس و الموهوبون منهم درجات، و بلوغنا الحقیقۀ معرّض دائما لهـذه الحـدود التی تعجز قوانا عن تخطّیها .. و إذا کان القیاس مع الفارق أن نـذکر، لمناسـبۀ ما نحن الآن بصـدده، قصـۀ أولئـک المکفوفین الـذین أرادوا أن یعرّفوا الفیـل مـا هو، فقـال أحـدهم: إنه حبـل طویـل، لأـنه صـادف ذنبه، و قـال الآـخر: إنه غلیظ کالشـجرۀ، لأـنه صـادف رجلـه، و قـال ثـالث: إنه

(______ ۱) حیاۀ محمّد- محمّد حسین هیکل،

ص ۱۳۱. الأعجـاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۹۸ مدبّب کالرمح، لأنه صادف سنّه، و قال رابع: إنه مسـتدیر ملتو کثیر الحرکۀ، لأـنه صـادف خرطومه، فـإن هـذا المثل، مقرونا إلی الصورۀ التی تتکون لـدی المبصـر من الفیل لأول ما یراه، یسـمح لنا بالموازنـۀ بین إدراک محمّـد کنه وحـدۀ الکـون و الوجـود و تصـویره فی الإسـراء و المعراج، حیث یتصـل بـأول الزّمن من قبـل آدم إلی آخره یوم البعث، و حیث تنعـدم نهائیـۀ المکـان، إذ یطـل بعین البصـیرۀ من لـدن سـدرۀ المنتهی إلی هـذا المکان یصـبح أمامه سـدیما، و بین ما یستطیع الکثیرون إدراکه من حکمۀ هذا الإسراء و المعراج، إذ یقفون عند تفاصیل لیست من وحدۀ الکون و حیاته إلّا کذرات الجسم، بل کالذرات العالقۀ به من غیر أن یتأثّر بها نظامه. أین الواحدۀ من هذه الذرّات من حیاۀ هذا الجسم و من نبض قلبه و إشـراق روحه و ضیاء ذهنه و امتلائه بالحیاۀ التی لا تعرف حـدا، لأنّها تتصل من الوجود بکل حیاۀ الوجود؟ و الإسـراء بالروح هو فی معناه کالإسـراء و المعراج بـالروح جمیعا سـموّا و جمالا و جلالا، فهو تصویر قویّ للوحـدۀ الرّوحیـۀ من أزل الوجود إلی أبـده، فهـذا التعریـج علی جبل سیناء، حیث کلّم اللّه موسـی تکلیما، و علی بیت لحم، حیث ولد عیسـی، و هذا الاجتماع الروحی ضمّت الصّلاۀ فیه محمّدا و عیسی و موسـی و إبراهیم مظهر قوی لوحـدۀ الحیاۀ الدینیـۀ علی أنّها من قوام وحـدۀ الکون فی موره الـدائم إلی الکمال». و بعـد هذا الوصـف اللطیف و المعانی الإنسانیـۀ و الروحیۀ، ینتقل الدکتور هیکل للعلم کما یفهمه، فیقول «۱»: «و العلم فی عصرنا یقرّ هذا الإسراء بالرّوح، و یقرّ المعراج بـالروح، فحیـث تتقابـل القـوی السـلیمۀ یشعّ ضـیاء الحقیقـۀ، کمـا أن تقابـل قـوی الکـون فی صـورۀ معینـۀ قـد طـوع (لمارکونی)، إذ سـلّط تیارا کهربائیا خاصا من سـفینته التی کانت راسیۀ بالبندقیۀ، أن یضیء بقوۀ الأثیر مدینۀ سدنی فی أسترالیا. و فی عصـرنا هـذا یقرّ العلم نظریـات قراءۀ الأفکـار و معرفـۀ مـا تنطوی علیه، کمـا یقرّ انتقـال الأصوات علی الأثیر بالرادیو و انتقال الصور و المکتوبـات کـذلک، ممـا کـان یعتبر فیما مضـی بعض أفانین الخیال. و ما تزال القوی الکمینـۀ فی الکون تتکشّف لعلمنا کل یوم عن جدید، فإذا بلغ روح من القوّۀ و من السلطان ما بلغت نفس محمّد، فأسری به اللّه لیلا من المسـجد الحرام إلی المسجد الأقصی الذی بارک حوله لیریه من آیاته، کان ذلک مما یقرّ العلم، و کانت حکمـۀ ذلک هـذه المعانی القویـۀ السامیـۀ فی جمالها و جلالها، و التی تصـوّر الوحـدۀ الروحیـۀ، و وحـدۀ الکـون فی نفس محمّـد تصـویرا

(______ ۱) حیاۀ محمّد- محمّد حسین هیکل،

ص ۱۳۱. الأعجـاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۹۹ صـریحا یسـتطیع الإنسان أن یصل إلی إدراکه إذا هو حاول السـموّ بنفسه عن أوهـام العاجلـۀ فی الحیـاۀ، و حـاول الوصول إلی کنه الحقیقـۀ لیعرف مکـانه و مکـان العالم کله منها». هکـذا یفسّـر هیکل الإسـراء و المعراج بالروح فی إطار علومه و علوم عصـره، أما إذا قیل له إن الإسـراء کان بالجسد و الروح فلا یجیب إلّا بالعبارات الغامضۀ نفسـها فیقول «۱»: «و أحسـبک لو سألت الذین یقولون بالإسـراء بالروح فی هذا، لما رأوا فیه عجبا بعد الذی عرف العلم فی وقتنا الحاضـر من إمکان التنویم المغناطیسـی للتحـدّث عن أشـیاء واقعـۀ فی جهات نائیـۀ، فما بالک بروح یجمع وحـدۀ الحیاۀ الروحیۀ فی الکون کله، و یستطیع بما حباه اللّه من قوّۀ أن یتصل بسـرّ الحیاۀ من أزل الکون إلی أبـده». و هکذا نخرج من هذه المحاولۀ المسـمّاۀ «علمیۀ» بأیدی فارغۀ، و الأسهل تفسیر الإسراء و المعراج بالرّوح عن طریق المتصوّفۀ المسلمین، من الأنفس، و لکنی أری أن محاولات تفسیر الإسراء

و المعراج بالجسد، التى ذكرها الفخر الرازى فى تفسيره، أكثر قوة و إقناعا، بل و علميّة، ممّا ذكره الدكتور هيكل فى محاولته، علما أنّ علم الأرواح و التنويم المغناطيسى، بعد هذا الزمن اليسير من عمرهما، كشف الزيف و الكذب عنهما و عن مصداقيتهما. على أن هذه المفاهيم و المعانى لم تقف عند هذه الحدود الساذجة، بل كل يوم تأتينا تحليلات جديدة و معان جديدة و محاولات تفسير علمية أو شبه علمية، و سنقتصر على ثلاثة نماذج ممن حاول أن يفهم معجزة الإسراء و المعراج فى إطار المفاهيم و المعانى التى يمكن استنتاجها منها. النموذج الأول، هو السيد سميح عاطف الزين فى كتابه «خاتم النبيين محمّد»، و الذى يعتبر أن معجزة الإسراء و المعراج «۲» «جاءت لتكون ثانى حدثين اثنين فى تاريخ الأنبياء و المرسلين الذين يحملون رسالات السماء إلى الأرض، حيث تم الاتصال المباشر من الخالق سبحانه و تعالى مع اثنين من هذه النخبة المختارة، حيث كان الاتصال الأول عند ما كلّم اللّه تعالى نبيه موسى عليه السّلام على جبل الطور فى سيناء، و هذا هو الاتصال الثانى عند ما أسرى اللّه سبحانه و تعالى بمحمّد صلّى اللّه عليه و سلّم حتى بلغ سدرة المنتهى ليكون على قاب قوسين أو أدنى، و ليرى و يسمع و يتحدّث فى عروجه بما لم يره و لم يسمع به أو يتحدث عنه غيره من الخلق أجمعين». و بعد أن

(_____۱) حياة محمّد- محمّد حسين هيكل، ص ۱۳۲. (۲) خاتم النبيين محمّد- سميح عاطف الزين، ج ۲ ص ۶۳۷. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۰۰ يؤكد سميح الزين على أن الإسراء و المعراج كان بالروح و الجسد، و لا مجال لتأويل النص القرآنى الصريح بما ينافيه، أو بما هو خرافة، بعد كل هذا يفسّر قناعته تلك بقوله «۱»: «إن القدرة الإلهية قد أثبتت لبنى الإنسان، فى أكثر من زمان و فى حياة الناس العاديين، أن فى حياة النبيين و المرسلين لا شأن للقوانين و النّظم التى يعرفها أبناء البشر، لأنّها تقول للشىء (كن فيكون)، و هذه الإرادة المطلقة التى خلقت هذا الكون العظيم، بما فيه من عوالم و آفاق، هى نفسها و وحدها التى نفّذت الإسراء و المعراج، و لا يمكن للعقل البشرى أن يستغرب وقوع هذا الحدث العظيم عند ما يتذكّر بأن الإرادة الإلهية قد أعطت للنبى سليمان عليه السّلام ملكا لم يعط لأحد من قبله و لا من بعده، فقد سخّرت له الرياح ذلولا يمتطيها على بساط فتحمله حيث أراد فى جوانب الكرة الأرضية، و قد جعلت له الجن خدما و عبيدا يأتمرون بمشيئته». و بعد أن يقارن الزين بين هذه المعجزة و معجزات الأنبياء سليمان و موسى و عيسى و إبراهيم و نوح، يعود إلى الاستنتاج «۲» «فما العروج بالشكل الذى سمعت إلّا للدلالة على إمكان الخروج من نطاق هذه الكرة الأرضية، التى تسبح فى الفضاء الذى يضمّ الملايين من أمثالها من الكواكب و الشموس و المجرّات الهائلة التى تكبرها بملايين ملايين المرات، و ما هو أيضا إلّا إشارة إلى قدرة اللّه الخارقة لإيقاظ الغافلين، و لجعلهم يتفكّرون فى خلق السموات و الأرض و فى أنفسهم، يحيون عليها بتعاقب الليل و النهار، إن هى إلّا آية صغرى من آيات اللّه العظمى، و ما هو أخيرا إلّا بمثابة إعجاز و إلفات نظر العالمين- سائر العالمين- بالأمس و اليوم و فى المستقبل، إلى أنه إذا تطورت وسائل السفر و الانتقال فإن الناس سيجترحون العجائب، لأن الإسراء و المعراج تم بواسطة نقل إلهية اخترقت جاذبية الأرض و طبقات الأثير، و طوت المسافات فانعدمت أمامها المسافات، و طوت الزمن فانعدم أمامها الزمن، الذى لا دليل عليه إلّا تعاقب الليل و النهار و طلوع القمر هلالا فى يوم سميناه أول الشهر، و اختفاؤه فى يوم سمّيناه آخر الشهر، و لا دليل عليه إلّا تقسيم فترات بياض النهار إلى ساعات تتحدّد بطلوع الشمس و مغيبها. هذا و قد حققت معجزة اللّه العظيم لنبيه الكريم فى رحلة عظيمة كانت بالأمس القريب غريبة عجيبة، و صارت اليوم- و بعد غزو القمر مرارا و تكرارا- أقرب إلى الذهن و المعقول، و إن كانت تجد ذاتها و واقعها مدهشة مذهلة كأكثر معجزات الأنبياء و الرسل فى عالم التقدير و الاعتبار.

(_____۱) خاتم النبيين محمّد- سميح عاطف الزين، ج ۲ ص ۶۳۸. (۲) المصدر السابق، ج ۲ ص ۶۳۹. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۰۱ و إذا كان للعقل الإنسانى أن يفهم بعض مدلولات المعراج فإنه، بالإضافة إلى اطمئنان نفس محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم و أنس قلبه للبرهان على الخروج من نطاق هذا الكوكب الأرضى الذى يسبح فى الفضاء، ليعرف الذين ينكرون البعث بأنهم غير باقين فى هذه الأرض بعد

انحلال أجسامهم، و أنّهم لا شك مبعوثون، جسدا و روحا و نفسا، فى مكان ما من عوالم اللّه تعالى التى لا يعلمها إلّا هو سبحانه، و لكى يتفكّروا فى خلق السماوات و الأرض و ما يحيط بهنّ. فهذه الدلالات تعبّر عن الإسراء، أى الانتقال من مكان إلى مكان، بواسطة لا- يعرفها البشر، و عن المعراج بنفس الواسطة التى تتحلّل من قوانين الجاذبية و الأبعاد و الأعماق و المسافات، و ما إليها من القوانين التى تحكم تصرفات بنى البشر، و التى لا شأن لها عند إرادة اللّه السنية التى تقول للشيء كن فيكون. و إذا كانت الإرادة الإلهية قد تجلّت و جعلت من الإسراء و المعراج وسيلة كشف لإحدى وسائل المواصلات التى تفرض على الإنسان الإذعان لها و الرضوخ لحكمها فإنها، و هى إرادة اللّه، قد جعلتها فتنة للناس لتثبت فى الروع أن الإنسان، مهما بلغ من العلم و المعرفة، عاجز عن الوصول إلى علم اللّه، و لكنه مدعو فى كل وقت للتوجّه نحو هذا العلم، و إلّا فقد ميزته التى خصّه اللّه تعالى بها عن سائر المخلوقات قليلا- عاجلا أو آجلا-، للبحث عن الوصول لبعض تلك العوالم ليصل إلى معرفة عظيم صنع اللّه و قدرته، على أنه و إن قدّر للإنسان أن يفقه سرّ معجزة الإسراء و المعراج أو لم يقدر، و غالب الظن أن هذا السّر ما زال فى جوانب كثيرة منه مغلقا على بنى البشر، فإنّها تظلّ الحدث العظيم الذى لا يمكن إنكاره و لا التنكّر له ما دام القرآن الكريم قد أثبته و أكّده بقوله تعالى وَ النَّجْمِ إِذا هَوى (۱) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى (۲) ... [النجم/ ۱، ۲]، و من هنا لم تكن حادثة الإسراء و المعراج المعجزة التى أريد منها قهر الناس على الاعتقاد بصدق نبوة محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم كما كان يحدث للأنبياء السابقين، و إلّا لكانت تلك الحادثة قد حصلت فى الظروف الحالكة الصعبة التى كان يعيشها النبيّ و المسلمون معه، و لا سيما المستضعفون منهم، بل كانت من أجل التكريم لشخص النّبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و الإيناس له، و من غير أن تعطّل المنهج العقلى الذى اشترعه القرآن». هكذا فهم السيد سميح عاطف الزين واقعة و معجزة الإسراء و المعراج، و هو يضعنا على أبواب التعامل مع مفردات و مكتشفات العلوم و لكن من بعيد، و لا يدخل إلى التفاصيل الدقيقة للقضايا العلمية. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۰۲ أما التفسير الأكثر قبولا منه، و الذى يلمس الجوانب العلمية أكثر، إضافة إلى الجوانب العقلية و المنطقية، هو ما طرحه الشيخ محمّد متولى شعراوى، و سنحاول تلخيص رأيه بشكل دقيق، مع مقتطفات من نصوص أقواله و كلماته العميقة. و قبل أن يبدأ شعراوى فى تفسيره لآية الإسراء، يعرض لموقع هذا الحدث و أثره فى الدعوة الإسلامية، لكى يزنه بميزان الحدث التاريخى، فهو يؤكد «أن حدث الإسراء و المعراج يعتبر حدثا ضخما من أحداث الدعوة الإسلامية، سبقته البعثة و جاءت بعده الهجرة». إذن فهو يزنه بميزان البعثة و الهجرة، و بعد أن يتحدّث عن أهمية كون هذه المعجزة كانت «نتيجة لجفوة الأرض لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و نتيجة لفقد النصير، و نتيجة لفقد الحامى، فاللّه سبحانه و تعالى شاء أن يجعل لرسول اللّه هذه الرحلة العلوية حتى يثبت له تكريمه، و حتى يثبت له أن فى اللّه عوضا عن كل فاقد، و أن الملكوت سيحتفى به حفاوة، و يمسح عنه كل عناء هذه المتاعب، و سيعطيه شحنة قوية لتكون أداته فى منطلقه الجديد بإذن اللّه». بعد ذلك يبدأ شعراوى بتفسير آية الإسراء بتفسير كلمة سُبْحانَ و يقول «۱»: إن معنى سبحان اللّه أن اللّه منزّه فى ذاته و فى صفاته و فى أفعاله، فإذا صدر فعل قال اللّه إنه صدر منّى، فيجب أن أنزهه أنا عن قوانين البشرية، و ألا أخضع فعل اللّه إلى قانون فعلى، و لذلك استهل السورة بقوله سُبْحانَ حتى يكون أول ما يقرع الإنسان لهذا الحدث العجيب الغريب، الذى تقف فيه العقول سُبْحانَ أى تنزيه، فإذا قال اللّه سُبْحانَ أى تنزيه لفعلى عن أفعالكم، معنى ذلك أن قانون اللّه فى الفعل ليس كقانوننا فى الفعل، ثم بعد ذلك أَسْرى به، فاللّه هو الذى أسرى و محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم هو الذى أسرى به، لما ذا لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا أى الإسراء كان لعلة دافعة هى ليريه الآيات، و لما ذا يريه الآيات لأنه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. و هكذا، يستنتج شعراوى أن اللّه سمع الإيذاء الذى أوذى به رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم، و قد رأى اللّه ما تعرّض له من الجفاء و الاستهزاء، و من السخرية و من الإهانة، كل ذلك برؤية و مسمع من اللّه، فحين رأى اللّه ذلك و سمع أراد أن يريه الآيات، فأسرى به. ثم يأتى شعراوى إلى ما أسماه قانون الفاعل، حيث يقول بأن اللّه بقانونه أسرى بعبده إليه، فلا يصحّ أن نؤاخذ محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم بفعل فعله اللّه به، لأن محمّدا لم يقل أنا سريت، لكى نقول له كيف سريت بهذه السرعة و نحن نضرب أكباد الإبل شهرا (_____ ۱) القرآن الكريم معجزة و

منهج- محمّد متولى شعراوى، ص ۱۴۵. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۰۳ و تفعلها أنت بليلة. إذن فالاعتراض على الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم خطأ، فليس هو الفاعل، و إنما هو اللّه، و فعل اللّه يكون حسب قوة اللّه، و قوة اللّه تلغى قانون فعل و قوة البشر المحدودة. و هكذا بنى شعراوى سرعة الإسراء بقوة اللّه على القول «۱» «المسافة تتناسب مع القوة تناسبا عكسيا، فكلما زادت القوة قلّت المسافة»، و القوة التى فعلت هى قوة اللّه تعالى، لذا نجد النتيجة (لا زمن). إذن، كلما كانت قوة الفاعل، إذا كان بشريا- سيارة طائرة أو صاروخ- فإن المسافة تتناسب عكسيا مع هذه القوة، و تختصر الزمن حسب قوة الناقل، فأما إذا كانت هذه القوة خارقة، و هى قوة اللّه، إذن فإن المسافات تلغى و يلغى معها الزمن اللازم لقطعها. هكذا يفسّر شعراوى قدرة اللّه فى الإسراء بتعاملها مع الزمن، كما أنه يستنتج، من اعتراض الكافرين على إمكانية الإسراء، أنّه كان حقيقة و بالجسد لا بالمنام بقوله «فالكافرون بتعنّتهم أمام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خدمونا خدمة كبيرة الآن، لأننا نقول لو كانت رؤيا منامية لما ناقش فيها أحد، لأن أى واحد يقص عليك رؤيا، فقانون المرائى فوق قانون المادة اليقظة، فما دام قد ناقشوا فيها و وقفوا فيها هذه الوقفة فهم قد فهموا أنّها يقظة و بالجسم و الروح». و إذا كان الغالب على تحليل شعراوى الجانب الروحى، و يعتمد على تحليل مفردات اللغة القرآنية و ما يمكن أن تعنيه فى منتهى الاحتمال للمعنى، إلّا أن الإسراء و المعراج بقى غامضا خاصة فى جانب السرعة و المسافة أو الزمن و المكان، و لما كان القرآن العشرون قد وصل إلى مفاهيم جديدة جدا و غير مطروقة لدى القدماء و المحدثين، فلنحاول أن نأخذ آخر مفردات العلم المعاصر حول هذه المفاهيم، لنرى إمكانية تفسير معجزة الإسراء و المعراج على ضوء النظرية النسبية لأنشتاين، و خاصة فى مجال السرعة و الزمن و المادة، فكيف تفهم هذه الرحلة الإلهية على ضوء هذه المفردات العلمية؟ و حينما نصل إلى الحديث عن أكبر سرعة معروفة فى العلم الحديث، لكى نقيس بها سرعة حركة انتقال الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و سلّم على أحدث الاكتشافات العلمية المعاصرة، فإننا نجد أن سرعة الضوء، البالغة ثلاثمائة ألف كيلومتر فى الثانية، هى المقياس المستخدم و المكتشف فى فضاء السرعة، أما ما توصل الإنسان إلى تحقيقه الآن من سرعة فى سفن الفضاء الحالية فإنّها لا تزيد على أربعين ألف كيلومتر فى

(_____ ۱) القرآن الكريم معجزة و منهج- محمّد متولى شعراوى، ص ۱۴۷. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۰۴ الساعة، فأين هذه السرعة من السرعة التى انطلق بها جبريل عليه السّلام، و معه محمّد عليه الصّلاة و السلام فوق السفينة الكونية العظمى ليلة الإسراء و المعراج؟ هكذا يبدأ الدكتور عبد العليم عبد الرّحمن خضر فى كتابه «الإنسان فى الكون بين القرآن و العلم» فى الحديث عن معجزة الإسراء و المعراج، على ضوء النظرية النسبية لأنشتاين، و سنستعرض آخر ما توصّل إليه، علما أنه يعتمد عدّة مصادر حديثة علمية، و يستشهد بأقوال علماء مسلمين و أجانب فى هذا الإطار. و حينما ينطلق الدكتور عبد العليم من مفردة أن الناس عادة «۱» «حينما يتحدّثون عن معجزة الإسراء و المعراج يتحدّثون عن جانبها الذى يتعلّق بقطع المسافات و طى الزمان و العروج من سماء إلى سماء فى لحظات لا تعادل بالأيام و الشهور، و إنما بالساعات و الدقائق»، ليصل إلى القول «إذن، فالرحلة رحلة كونية تفوق كل المقاييس التى عرفها أو سيعرفها البشر» فكيف فسّر، على ضوء العلم الحديث، هذه المعطيات؟ يبدأ الدكتور من مفردة أن البراق كان يسير بسرعة البرق- و قد يكون سمّى براقا لهذه الخاصية- فيرى أن البرق ضوء، و سرعة الضوء ۱۰۸۰ مليون كيلومتر فى الساعة، فهل كانت سرعة البراق تساوى سرعة الضوء فقط؟ و هل تكفى عدة ساعات للسفر إلى سدرة المنتهى ثم العودة إلى الأرض؟. و بعد أن يورد الدكتور تفسير قوله تعالى فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (۱۶) وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ (۱۷) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (۱۸) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (۱۹) [الانشقاق/ ۱۶- ۱۹] بمعنى «لتركبن يا محمّد سماء بعد سماء»، كما فسّرها الطبرى و ابن كثير، يقول «۲»: «و كان ركوب السماء بعد السماء ليلة الإسراء و المعراج، و لا بد أن الطبق الذى ركبه الرسول الكريم و معه جبريل كان أسرع من الضوء نفسه، نظرا لضخامة الكون الذى تمثّله السموات، سماء بعد سماء، تتمثّل بتلك الضخامة فى قوله تعالى تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ [المعارج/ ۴]. و هكذا يعود الدكتور إلى القول «۳»: «إن آية الإسراء لم تذكر أن الرسول الكريم محمدا، عليه الصّلاة و السّلام، كان محمولا على شىء، إنّه كان يسبح فى

الفضاء بقدرة اللّه تعالى التى لا حدود لها، بعد أن أصبح حقيقة كونية فى غير حالتها الأرضية الناقصة. فإن كان قد قيل إنه ركب البراق، فقد يكون المقصود البرق أو أيّة

(۱) الإنسان فى الكون بين القرآن و العلم- د. عبد العليم عبد الرّحمن خضر، ص ۳۲۲. (۲) المصدر السابق، ص ۳۲۴. (۳) المصدر السابق، ص ۳۲۶. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۰۵ قوة كهربية، و لا يمكن فى حالة إسراء اللّه بعبده أن تجرى أحكام الحواس و لا أحكام المادة». و بعد أن يستشهد الدكتور بوجهة نظر الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه دلائل النبوة، و رفضه لمفهوم السلالم للعروج إلى السماء، مستندا إلى أن العلم الحديث أثبت «أن المادة الصلبة مجرّد كهارب فى رتبة اهتزاز معينة»، و أن الذين يريدون أن يفسّروا الإسراء و المعراج بالتصوّر المادى بالمطيّة للإسراء و السلالم للمعراج بسبب جهلهم هذه الحقيقة التى لو عرفوها «لما خدعتهم حقيقة المادة الصلبة التى تشبّثوا بها فى الإسراء على البراق و المعراج على السلالم، و لأمكنهم أن يتصوّروا إمكان الإسراء بلا مطية و الصعود إلى السماء بلا سلالم». بعد هذا، يعود الدكتور عبد العليم ليناقش مسألة الزمن التى أنكر المشركون حدوث الإسراء بناء عليها، فيقول «إننا إذا تخلّصنا من هذه الأرض المادية و احتللنا مكانا مستقلا لا يربطنا بجاذبيتها و لا بقوانينها، فسوف لا نشعر بالزمن الذى تعوّدنا عليه و لا يصبح للعمر لدينا أى معنى، لأننا لن نعرف سوى اللازمن، أى الخلود، لا ماضى، لا مستقبل، و لكن الحاضر وحده هو الذى نعيش فيه»، و يستنتج الدكتور بأن رحلة الإسراء و المعراج فى واقعها إنما هى «رحلة كونية إلهية لا يمكن حسابها زمنا أو بعدا أو وسيلة بحسابات البشر، إنها رحلة فضائية كاملة تخطّت أبعاد الزمان و المكان من مكّة إلى بيت المقدس، و تمّت الرحلة إلى السماوات العلى و بقايا دفء فراش الرّسول موجودة». و بعد أن يقارن الدكتور بين رحلة الإنسان إلى القمر و غزوه للفضاء بسفن فضائية تحمل أجهزة إلكترونية للدراسات العلمية عن المريخ و الزهرة و المشترى، و مسألة الإسراء و المعراج، يصل إلى أن كل هذه الاكتشافات لا تفسّر روعة السرعة التى تمّت بها رحلة الإسراء و المعراج، لذا نراه يعتقد «أن السفينة الإلهية، التى حملت محمّدا عليه الصلاة و السّلام و جبريل، قد اخترقت دوائر بلايين المجرات حتى تصل إلى السماوات العلى و سدرة المنتهى». و للدلالة على استحالة تفسير هذه الرحلة الكونية الإلهية يتعرّض الدكتور لشرح مساحة الكون الكبير كما اكتشفه علم الفضاء و الفلك حديثا، و الذى حتى الضوء بسرعته الخرافية يحتاج إلى ملايين السنين الضوئية لكى يقطعه، فكيف قطعه الرّسول الكريم فى ساعات معدودة؟ إن الإعجاز الحقيقى للإسراء و المعراج يظهر فى العلم الحديث حينما نعرف مساحة الكون اللانهائية كما اكتشفها العلم الحديث. فإذا كان الكفار قد اعترضوا الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۰۶ على الإسراء، و هو مسيرة ساعة فى الطيارة الآن، فكيف سيكون إنكارهم لو عرفوا أبعاد السنين الضوئية لمساحة الكون الممتد عبر مجراته و سدمه و نجومه؟ لذا فإن الدكتور يشرح هذا الحجم الرهيب للسماوات بقوله «و يكفى دلالة على حجم السماوات الرهيب أن نقول إن العلماء، خلال نصف القرن الأخير، ابتكروا مناظير كبيرة كشفت آلافا من المجموعات الكونية، تتكوّن كل مجموعة من آلاف السدم، كل سديم يضم عشرات الملايين من النجوم و الأجرام السماوية»، و يرى علماء الفضاء أن نصف هذه السدم التى تسبح فى الكون إنما هى أعضاء فى مجموعات تشبه الكرة يبلغ قطرها مليونين من السنين الضوئية، فإذا كان الضوء يسافر خلال ساعة مسافة قدرها ۱۰۸۰ مليون كيلومتر، فكم تكون المسافة التى يقطعها فى اليوم و الشهر ثم السنة الواحدة؟ ثم كم هو رهيب حجم مجموعة السدم التى يبلغ قطرها مليونى سنة ضوئية؟ إن هذه المجموعة واحدة من بلايين السدم التى تنتشر فى أرجاء الكون الفسيح، و من هذه المجموعات مجموعة تسمى (كوما) تبعد عن سديمنا بحوالى ۴۰۰ مليون سنة ضوئية، و هى مجموعة ضخمة من السدم فى مركزها، و هى تسبح جميعا فى صورة تشبه الكرة و يقول الفلكيون «۱»، إن سدما جديدة دائمة التكوّن قرب المركز، أو إن شئت قل إن الكون فى تمدد مستمر و اتساع دائم، و هناك حشود كروية تظهر فى المناظير ككرات ضخمة هائلة تشبه المجرات و لكنها أضخم منها حجما، و اكتشف عدد أقربها إلينا اثنتان هما سحابتا ماجلان الصغرى، قطرها يخترقه الضوء بسرعة ۱۰۸۰ مليون كيلومتر فى الساعة لمدة خمس و عشرين ألف سنة ضوئية، و الكبرى يخترقه الضوء (أى سفينة تسير بسرعة

الضوء) فى مدة اثنين و ثلاثين ألف سنة ضوئية ... و إذا كانت هذه صفحة من مساحة الكون المكتشف حتى الآن و هو يتسع فى كل لحظة و يتمدد و يخلق مجرات جديدة، لذا فإن الدكتور يعتقد «أن الأحسن احتمالا لتصور سرعة السفينة الإلهية، التى قامت بتلك الرحلة الكونية الرهيبة خلال جزء من الليل، هو تسخير قانون النسبية لحمل و إطلاق و عودة المركبة الفضائية الإلهية البراق»، أى أنه لما كان قد ثبت من نتائج قانون النسبية الرياضية ما معناه أنّه لو أتيحت لكائن أو جسم ما سرعة أكبر من سرعة الضوء لانمحت أمامه المسافات، مهما عظمت، و يقطعها فى زمن لا يذكر. و بعد أن يشرح الدكتور مفهوم أنشتاين للزمن، الذى يعتبره ليس حقيقة قائمة

(_____ ۱) الإنسان فى الكون بين القرآن و العلم- د. عبد العليم عبد الرّحمن خضر، ص ۳۳۰. الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۰۷ بذاتها و إنما هو من خواص المادة، و أن المستقبل قد يتصل بالحاضر، و قد يلحق بالماضى، لأنه فى كل لحظة نحن نقتطع من المستقبل و نضمه إلى الماضى، فلا ينقص هذا و لا يزيد هذا، لأن كلا منهما لا نهائى، و أن المستقبل يلتف على شكل دائرة، و بذا يدخل فى الماضى، إذ أن الدائرة علامة أبدية. و بناء على هذه النظرية تكون الظواهر التى تمر بنا بسرعة الضوء هى تلك التى اعتدنا أن نسميها إشعاعا، أما الأحداث المجسّمة التى تسير ببطء شديد فقد اعتدنا أن نسميها مادة، أو بحسب تعبير أنشتاين إن المادة هى عقل أو فراغ أو فضاء نقصت سرعته عن السرعة الطبيعية للضوء و هى ۳۰۰ ألف كيلومتر فى الثانية، و لو أن هذه المادة عادت تتذبذب بسرعة الضوء لاختلفت و لم تعد تدركها حواسنا. و هكذا نرى أنه فى نظرية النسبية أن الأشياء تبدو لراصد يسير بسرعة الضوء، إذا كانت تسير معه تبدو مادة صلبة، أن الأشياء التى تمر به بسرعة الضوء فتكون شعاعا إذا كان هو واقفا. من خلال جميع هذه المفاهيم و المعلومات العلمية نرى أن رحلة «كهذه أخذ فيها جبريل (و هو من نور) بيد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و عرج به إلى السماء الدنيا، ثم الثانية ثم الثالثة فالرابعة فالخامسة فالسادسة ثم السابعة ثم إلى سدرة المنتهى، رحلة كهذه قطع فيها جبريل و صحبه بلايين البلايين من السنين الضوئية فى بضع ساعات من الليل، حسب مقاييسنا الأرضية، لا بدّ أن تكون السرعة و الوسيلة غير ما يعرف البشر، و معنى ذلك أن الرسول الكريم عليه الصّلاة و السّلام، و معه ملك الوحى جبريل عليه السّلام، قد عرج بهما فى زمن لا يذكر بسرعة أعظم من سرعة الضوء، و التى لم يتوصّل إليها البشر بعد، بل لا يستطيعون مجرد التفكير فى كنهها رغم أن العلم و العلماء عرفوا أنّها موجودة فحسب». إذن، فعلم البشر مهما تقدم فلن يصل إلى سر السرعة الرهيبة التى انطلقت بها سفينة الفضاء الإلهية. إنها رحلة المعراج حيث تجاوز الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و سلّم الكون كله، و كان عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى. هكذا يصل الدكتور عبد العليم إلى أن كل العلوم المعاصرة تعجز عن تفسير الإسراء و المعراج، و لعل آخر ما يكتشفه الدكتور من هذه الرحلة هو «إنه لمن المذهل حقا أن يذكر القرآن الكريم أسفار الفضاء كلها على أنّها تتم فى مسارات منحنية و ليست فى خطوط مباشرة مستقيمة، يتضح ذلك فى جميع آيات (العروج) الأعجاز العلمى فى القرآن(للسامى)، ص: ۱۰۸ التى ذكرها اللّه سبحانه و تعالى فى القرآن الكريم، نجد دائما أن اللّه سبحانه قد عبّر فى كتابه الكريم عن السبح فى الفضاء أو الارتفاع فى السماء بكلمة معراج أو عرج، و فى ذلك كشف هام». إذن، فالإسراء و المعراج سيبقى المعجزة الخالدة التى تتحدّى علم العلماء و اكتشاف المكتشفين، لأنها منتهى الاحتمال العقلى و النظرى، و ستبقى تتحدث للعالم بمعطياتها الخارقة حتى تقوم الساعة، كما ستبقى «آيتان من آيات اللّه فى الآفاق، و إشارة إلى قدرته المطلقة و انفراده وحده سبحانه بالخلق، و لمس لجوانب الحقيقة العلمية التى تؤكّد ركوب الإنسان طبقا بعد طبق، أو أطباقا متعددة المراحل، و على البشر جميعا أن يعلموا أن كل ما وصل إليه الإنسان من وسائل الركوب، ابتداء من الناقة إلى الطبق، من صنع اللّه تعالى، يتمثّل فى قوله تعالى وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ، فإذا كانت الفلك تسبح فى البحار فإن الأطباق و الطائرات تسبح فى الهواء، و فوق المادة الكونية التى تتخلل الأجرام السماوية، و بالقياس يمكن القول إن الفلك «السفن» و مثلها الطائرات و سفن الفضاء، إنّها فلك هوائية تسبح فى الهواء و الفضاء سبحا هادئا كأنّها تطفو على صفحة الماء». و هكذا تبقى المعجزة الخاصة الفردية للرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و سلّم، تتحدّث لهذا العصر المغرور بمعلوماته، و تكنولوجيته و فرضياته العلمية بمنطق الخارقية التى لا تصل إلى حافاتها أى قدرة

إنسانیـة مهمـا وصـلت فی التقـدم العلمی، و مهمـا تطوّرت وسائل مواصـلاتها و انتقالها، و هـذا یعنی أن عصـرنا له معجزته أیضا، و له إعجـازه، و أن خاتم النبیین لم یمض و یـدع العالم عنـد حـدود معجزاته فی زمنه، بل لا زال یتحـدث إلیهم داعیا إلی اللّه بمعجزاته، و سیبقی ما دام لا نبیّ بعده، دلیل الخلق إلی اللّه حتی قیام الساعة. الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۰۹

المصادر و المراجع

المصـادر و المراجع ۱- الشـفا فی أحوال المصـطفی: القاضی عیاض الأندلسی، ط ۱۹۸۶، دار الفیحـاء، الأردن. ۲- مختصر تفسیر ابن کثیر: محمـد علی الصـابونی، ط ۱، مکتبـة جدة. ۳- الـدر المنثور فی التفسـیر بالمـأثور: السـیوطی، ط ۱۹۸۳، دار الفکر، بیروت. ۴- الإیمان و العلم الحـدیث: محمـد حسـین الأدیب، ط ۱۹۵۵، النجف. ۵- إعجـاز القرآن: الباقلانی، ط ۱۹۸۶، مؤسـسة الکتب الثقافیة، بیروت. ۶- تفسـیر ابن تیمیة- التفسیر الکبیر: ابن تیمیة، ط ۱۹۸۸، دار الکتب العلمیة، بیروت. ۷- القرآن معجزة و منهج: محمد متولی شعراوی، ط ۱۹۸۴، دار النـدوة، بیروت. ۸- المعجزة القرآنیـة: د. محمـد حسن هیتو، ۱۹۸۹، مؤسـسة الرسالة، بیروت. ۹- علم أصول الفقه: عبد اللّه خلاف، ط ۸، دار القلم. ۱۰- هذا هو الإسلام: محمد متولی شعراوی، ط ۱۹۸۷، الدار المصریة للنشر، مصر. ۱۱- تطور تفسـیر القرآن: د. محسن عبـد الحمید، ط ۱۴۰۸، بغداد. ۱۲- الفلسـفة القرآنیـة: عباس محمود العقاد، المکتبة العصـریة، بیروت. ۱۳- الفکر الـدینی فی مواجهة العصـر: د. محمد عفت الشـرقاوی، ط ۱۹۷۹، دار العـودة، بیروت. ۱۴- التـاج الجامع للأصول: منصور علی ناصف، ط ۱۹۶۲، دار إحیاء التراث العربی. ۱۵- تفسـیر مفردات القرآن: سمیح عاطف الزین، ط ۱۹۸۴، دار الکتاب اللبنانی، بیروت. ۱۶- أصول التفسـیر و قواعـده: خالـد عبد الرحمن العک، ط ۱۹۸۶، دار النفـائس، بیروت. الأعجـاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۱۰ ۱۷- معترک الأقران فی إعجاز القرآن، السـیوطی، ط ۱۹۸۸، دار الکتب العلمیـة، بیروت. ۱۸- نحو منهج لتفسـیر القرآن: محمد الصادق عرجون، ط ۱۹۷۷، الدار السعودیة للنشر و التوزیع، جدة. ۱۹- شطحات مصطفی محمود فی تفسیراته العصریة للقرآن الکریم: د. عبد المتعال الجیری، ط دار الاعتصام. ۲۰- الإنسان فی الکون بین القرآن و العلم: د. عبد العلیم عبد الرحمن خضر، ط ۱۹۸۳، عالم المعرفة، السعودیة. ۲۱- القرآن تفسیر الکون و الحیاة: محمد العفیفی، ط ۱۹۸۶، ذات السّلاسل، الکویت. ۲۲- معالم القرآن فی عوالم الأکوان: أحمـد محیی الـدین العجوز، ط ۱۹۸۷، دار النـدوة الجدیدة، بیروت. ۲۳- محمـد رسول اللّه: محمـد رشـید رضا، ط ۱۹۷۵، بیروت. ۲۴- زاد المعاد فی هـدی خیر العباد: ابن قیم الجوزیة، ط ۱۹۸۶، مؤسسة الرسالة، بیروت. ۲۵- تفسیر الفخر الرازی: ط ۱۹۸۵، دار الفکر، بیروت. ۲۶- حیاة محمد، محمد حسـین هیکل، ط مصـر. ۲۷- جواهر البحـار: النهبانی، ط ۱۹۶۰، مصـطفی البابی الحلبی مصر. ۲۸- خاتم النبیین محمـد: سـمیح عاطف الزین، ط ۱۹۸۶، دار الکتـاب اللبنانی، بیروت. ۲۹- تفسـیر روح المعانی: الآلوسی، ط ۱۹۸۷، دار الفکر، بیروت. ۳۰- مناهل العرفان فی علوم القرآن: محمـد عبـد العظیم الزرقانی، ط ۱، دار الکتب اللبنـانی، بیروت. ۳۱- الأـصول الفکریـة للثقافـة الإسـلامیة: د. محمـود الخالـدی، ط ۱۹۸۴، دار الفکر للنشـر و التوزیـع، عمـان. الأعجـاز العلمی فی القرآن(للسامی)، ص: ۱۱۱

الفهرس

الفهرس الموضوع الصفحة المقدمة ۵ المقدمة الفکریة: ضـرورة المعجزة بین مفهوم شمولیة الرسالة و خاتم النبیین ۱۱ البعد التاریخی: الإعجاز العلمی من کتب الإعجاز حتی التفسیر العصری ۲۳ التطبیق العملی: من نظریة المنهج إلی التطبیقات العملیة ۴۵ الإعجاز العلمی فی الإسـراء و المعراج ۸۶ ۱- معجزة الإسـراء و المعراج و تفسـیرها لـدی القدامی أ- التفسـیر العقلی ۹۱ ب- التفسـیر الصوفی ۹۴ ۲- معجزة الإسراء و المعراج و التفسیر العلمی الحدیث ۹۵ المصادر و المراجع ۱۰۹

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائميّة "الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يومٍ. مركز "القائميّة "للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة –فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت– عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و... – مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ أُخرَی. – من الأنشطة الواسعة للمركز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبيّة، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و... د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ أُخرَ ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و... ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَةَ المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان" ومُفترَق "وفائی/ "بناية "القائميّة "تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة) رقم التسجيل: ۲۳۷۳ الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظة هامّة: الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لإعانتهم – فی حدّ

التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللّه تعالی؛ و اللّه ولیّ التوفیق.

مرکز
القائمیه
اصفهان
للبحوث والتحریات الکمبیوتریة
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩